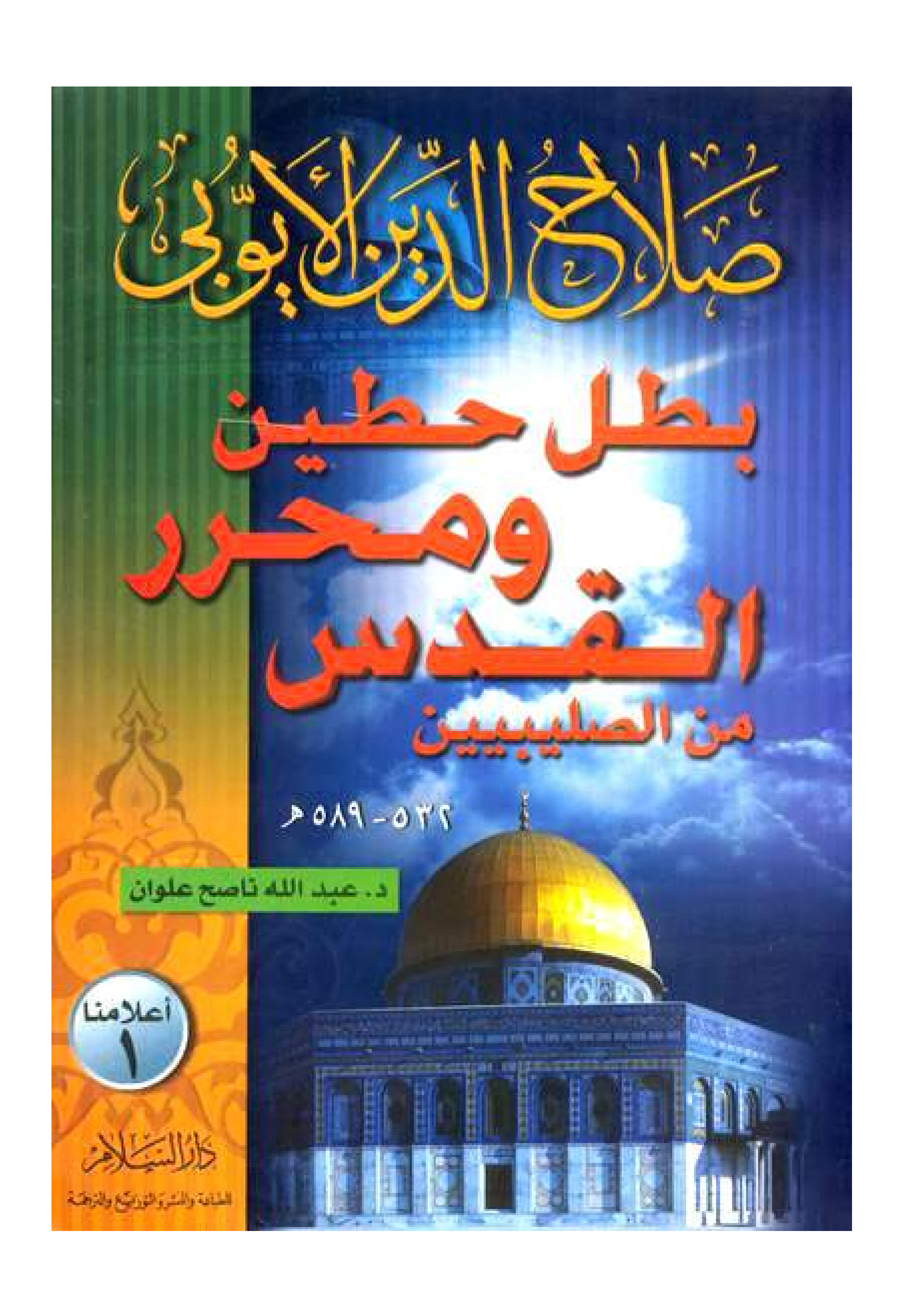


الإصدار الأول

www.abdullahelwan.net

فهرس

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة بقلم فضيلة الشيخ سعيد حوى

الحمد للّه والصلاة والسلام على رسول اللّه وآله وبعد :

(١)

فلقد أحسن المؤلف حفظه اللّه تعالى ورعاه في الكتابة عن صلاح الدين من نواح عديدة :

١ - لأن الأمة تنتظر مثل صلاح الدين البطل ليعيد الدور مرة أخرى ، وعليها أن تعرف مواصفات البطل الجديد قياسًا على أوصاف البطل القديم .

٢ - لأن القدس اليوم في المحنة وعلى الأمة أن تستقرئ تاريخها لتعرف كيف أنقذت القدس أول مرة ، لتنقذها مرة ثانية .

٣ - لأن أمتنا اليوم ضلت طريق القدوة ، وعليها أن تعرف أصحابها ، وأن صلاح الدين واحد من الأعلام المقتدى بهم على مر العصور .

٤ - لأن أمتنا اليوم ضلت طريق الجهاد كطريق وحيد لإنقاذ فلسطين ، وأغرقت في الشهوات والشبهات ؛ فكان لابد من تذكير قارع بسيرة جامعة ، وليس مثل سيرة صلاح الدين مذكرة بقوة واندفاع في هذا الموضوع .

لقد أحسن المؤلف الاختيار والتذكير ، ونرجو أن تحسن الأمة الأخذ بأسباب النصر .

(٢)

ولقد أحسن المؤلف مرة أخرى إذ جلَّى شخصية صلاح الدين ؛ فشخصية صلاح الدين شخصية ضخمة فذة ومنبع العبقرية فيها إسلامها وهو سبب تجمع القلوب حولها وصدقها في هذا التحرير ، مع عقيدة هذه الأمة ، وهذه قضية تحتاج إلى إبراز كبير ، ليعرف القادة الطريق الحقيقي لقيادة هذه الأمة في

هذه المرحلة. إن الطريق الوحيد لقيادة هذه الأمة في هذه المرحلة هو تبني قضية فلسطين على شرط أن يكون هذا التبني صادقاً ومتجاوبًا مع آمال الأمة وعقائدها وثقافتها وتاريخها . .

لقد حفظت هذه الأمة لصلاح الدين أطيب الذكرى لأنه كان كذلك .

أما الذين يظنون أن طريق القيادة هو التبني الكاذب ، والوعود الكاذبة : فهؤلاء واهمون ، وإذا ساروا في هذا الطريق الملتوي ، فستلعنهم الأجيال ، ويحاكمهم التاريخ.

أما الذين يظنون أن حل مشكلة فلسطين سيكون بعقيدة معزولة عن تراث هذه الأمة وعقيدتها فهؤلاء واهمون ، وسيستحقون كذلك غضب الله ، ولعنة الأجيال ، ومحاكمة التاريخ .

إن فلسطين هي محور أحداث هذه المنطقة خلال العصور ، وهي محور الأمجاد والبطولات .

وكما كانت وحدة الشام ومصر في يوم ما تحت راية إسلامية واحدة نقطة البداية لإنهاء الغزو الصليبي .

وكما احتاجت هذه الوحدة إلى أن تكون مدعومة بثقل العالم الإسلامي كله المتمثل يوم ذاك في الخلافة العباسية .

فإن فلسطين اليوم تحتاج إلى وحدة الشام ومصر وحدة ذات مضمون إسلا مي، وأسس إسلامية ، وحدة تستند إلى معطيات العالم الإسلامي كله .

وهذا الكتاب هو الدرس العملي ، والطريق الحقيقي لهذا كله .

ومن ثم فإن علينا أن نقرأ هذا الكتاب ، وأن ننشره ، وأن نهديه ، وجزى الله المؤلف كل خير .

سعيد حوى

مقدمة الطبعة الثانية والثالثة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، والصلاة والسلام على سيد الأبطال والمجاهدين ، وعلى آله وأصحابه الغر الميامين ، وعلى من نهج نهجهم وسلك سبيلهم بإحسان إلى يوم الدين .

وبعد : فإن مما يحزُّ في القلب ، ويترك في النفس أسى ولوعة أن نجد من المسلمين من يعتريهم اليأس ، ويستحوذ عليهم القنوط اعتقادًا منهم أن لاسبي ل إلى إصلاح أمة الإسلام في هذا العصر الذي نعيش فيه ، وأن لا أمل إلى استعادة مجد المسلمين ، واسترجاع عزتهم وكيانهم . .

بل نجد من المسلمين – ويا للأسف – من ينادي بالعزلة الكاملة ، والتزام أحلاس البيوت ، لظنهم أن هذا العصر آخر الزمان ، وآن الأوان أن يخرج المسلم بنفسه ببضع غنيمات يتّبع شغف الجبال ، ومواقع القطر يفرُّ بدينه من الفتن حتى يدركه الموت [1] .

بل أصبحنا نسمع على ألسنة من ينتسبون إلى العلم أن لا سبيل إلى الإصلاح إلا أن يرسل الله عز وجل لهذه الأمة المهدي المنتظر ، أو ينزل عليها من السماء عيسى عليه السلام يملأ الدنيا إيمانًا وعدلًا ، كما ملئت كفرًا وجورًا . .

إن هذه الطائفة اليائسة عندما تتبنى هذه الوجهة من اليأس والقنوط . . إنما تدلِّل على هلاكها قبل كل شيء ، وليس على هلاك المسلمين ، يقول عليه الصلاة والسلام: " من قال : هلك المسلمون ، فهو أهلكهم " .

من كان يظن أن تقوم للمسلمين قائمة لما استولى الصليبيون على كثير من البلاد الإسلامية ، والمسجد الأقصى ما يقارب مائة عام . . ؟ من كان يظن أن هذه البلاد ستحرر على يد البطل المغوار " صلاح الدين " في معركة حطين الحاسمة ، ويصبح للمسلمين من الكيان والقوة والعزّة ما شرّف التاريخ ؟

---

[1] حديث " يوشك أن يكون خير مال الرجل غنم يتبع بها شغف الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن " حديث صحيح رواه البخاري ، ولكن محمول على مَنْ يفتن بدينه ويجبر على الردَّة.. أما ما دام يوجد مسلمون يؤدون الشعائر ، ويطبقون على أنفسهم أحكام الإسلام ، وما دام أنه ثمة مجال للتعاون وتحقيق عز الإسلام ؛ فإنه يحرم على المسلمين العزلة والانطواء لأنه مالايتح قق الواجب إلا به فهو واجب ..

ومن كان يظن أن تقوم للمسلمين قائمة لما خرَّب المغول والتتار العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه ، وفتكوا بالأنفس والأعراض فتكًا ذريعًا ، حتى قيل إن جبالًا شامخة أقامها " هولاكو " من جماجم المسلمين ! ؟

من كان يظن أن بلاد الإسلام ستتحرر على يد البطل المقدام " قطز " في معركة عين جالوت الحاسمة . . ويصبح للمسلمين من المجد والعظمة والرفعة ما تفخر به الأجيال ؟ !

إن التفاؤل بالنصر هو مقدمة النصر ، وإن القوة المعنوية في كل أمة هي التي تدفع شبابها ورجالها إلى تحقيق المزيد من الانتصارات الخالدة ! !

وإني أهيب بالشباب المسلم اليوم أن يتمعَّن في سيرة السلطان صلاح الدين رحمه الله ، وأن يحيط بالأسباب التي حققت له النصر .

وأنا على يقين أن حكامنا وشبابنا وأمتنا . . إذا ساروا سيرة صلاح الدين في الوصول إلى النصر . . فإن القدس ستتحرر من براثن اليهود ، وإن فلسطين سترجع إلى المسلمين، وإن راية الإسلام ستخفق من جديد في سماء المعمورة .

﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴾ .

ومما يبشر – يا شباب – أن المستقبل سيكون للإسلام ، وأن العزة الإسلامية ستتحقق لا محالة على يد المسلمين هذا الحديث الذي رواه أحمد والبزار والطيالسي ، وقال الهيثمي : " ورجاله رجال الثقاة " .

قال عليه الصلاة والسلام : " إن أول دينكم نبوة ورحمة ، وتكون فيكم ما شاء اللّه أن تكون ، ثم يرفعها اللّه ﷻ ، ثم تكون ملكًا عاضًّا فيكون ما شاء اللّه أن يكون ، ثم يرفعه اللّه ﷻ ، ثم يكون ملكًا جبريًّا ، فيكون ما شاء اللّه أن يكون، ثم يرفعه اللّه ﷻ ، ثم تكون خلافة على منهاج النبوّة تعمل في الناس بسنة النبيّ ، ويُلقي الإسلام بجرانه في الأرض ، يرضى عنها ساكن السماء ، وساكن الأرض ، لا تدع السماء من قطر إلا صبَّته مدرارًا ، ولا تدع الأرض من نباتها ولا بركاتها شيئًا إلا أخرجته " .

فالذي يبدو من هذا الحديث – يا شباب – أن الملك العاضّ قد انتهى بانتهاء السلطنة العثمانية ، والآن جاء دور الملك الجبري ومظهره تلك الانقلابات الكثيرة التي وصل أصحابها إلى الحكم بدون رأي الأمة ، وغصبًا عن إرادة الشعب . .

دكتاتوريات بدأها " أتاتورك " في تركيا ، وتتابعت في كل مكان . ولكن دلائل اليقظة الإسلامية تبشر بأن ذلك لن يطول أبدًا ، وسيأتي اليوم ا لذي ستكون فيه الخلافة على منهاج النبوة ، والحياة العامة على سنن الإسلام . .

ولعلَّ ذلك يكون قريبًا إن شاء اللّه .

وإني متفائل أن هذا كله سيتحقق على أيدي الشباب ، وعزائم الرجال ، ومثابرة الدعاة ، وجهاد العلماء ، وبذل الأغنياء . . وما ذلك على اللّه بعزيز [1] .

وفي الختام أشكر جميع الإخوة الذين أثنوا على الكتاب خيرًا ، وأبادلهم حبًّا بحب، ووِدادًا بوداد . . كما أشكر الشاعر الكبير الأستاذ عبد الجبار الرحبي على تقريظه المخلص، وشعره الرقيق ، وثقته الغالية .

وها أنا ذا أنقل إلى قراء الكتاب بأمانة تقريظ الأستاذ وشعره ، وسوف يجده القارئ في الصفحات الأخيرة من هذا الكتاب .

اللّه أسأل أن يجعل أعمالنا خالصة لوجهه الكريم ، وأن يوفقنا دائمًا بالكتابة عن سير أبطال غرٍّ وجدود أمجاد ميامين . . عسى أن يتأسى الجيل الإسلامي بهم ، ويمشي على منوالهم إنه بالإجابة جدير .

[1] من كتابنا " حتى يعلم الشباب " ص ٨٧ ـ ٨٨ مع بعض التصرف .

مقدمة الطبعة الأولى

الحمد للّه رب العالمين ، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد سيد الشجعان والمجاهدين ، وعلى آله وأصحابه الغرّ الميامين ، وعلى من دعا بدعوتهم ، وجاهد جهادهم بإحسان إلى يوم الدين .

وبعد : فإن التحدث عن سير عظمائنا في التاريخ ، وقوادنا في الجهاد ورجالاتنا في الإصلاح . . لمن أطيب الأحاديث ، ومن أحب الذكريات ، ذلك لأنهم شموس الهدى في سماء الإنسانية ، والمنارات المتلألئة في بحار الظلمات . وما صلاح الدين إلا أحد هؤلاء العظماء الأبطال الذين جمعوا الناس على الإسلام الحق ، ورفعوا في سماء الوطن الإسلامي لواء الوحدة ، وحرروا بلاد الإسلام من العدو المغتصب ، والاستعمار الكافر ، وكتبوا في سجل التاريخ آيات النصر ، وذكريات الخلود .

ورب سائل يقول : لماذا فضل المؤلف الكتابة عن صلاح الدين ، وقدمه على كثير من أبطالنا الخالدين ؟ كسعد وخالد وأبي عبيدة . . ؟ والجواب يكمن في أن سيرة صلاح الدين متصلة بالفتح المبين ، وتحرير الأرض المقدسة (فلسطين) من براثن الصليبية الحاقدة ، والاستعمار الكافر البغيض ، فحينما أكشف للجيل الحاضر عن سر انتصاره في حطين ، وأفصِّل القول في الأسباب التي أدت إلى هذا النصر الخالد العظيم ، أكون قد وجهت أنظار الأمة الإسلامية إلى السبيل الأقوم في تحرير أولى القبلتين ، وثالث الحرمين، ومسرى محمد صلوات اللّه عليه ، من ربقة الصهيونية الغاشمة واليهود الأنذال المجرمين ، ومن مكن لهم وآزرهم من الغربيين والشرقيين .

وسيجد القارئ الكريم في فصول هذا الكتاب ، كيف تحقق النصر على يد كردي لا يمت إلى العرب بنسب ؟ وكيف وحَّد البلاد الإسلامية تحت قيادته الرشيدة ؟ وكيف جمع الناس على شريعة الإسلام ، وهدي محمد عليه الصلاة والسلام ؟ وكيف دخل المعركة باسم الإسلام ، وحارب لإعلاء

كلمة الله ؟ وكيف انتصر على الصليبيين بعزة الإيمان ، والاعتصام بحبل الله؟ وكيف عامل الأعداء بالمعاملة السمحة ، والأخلاق النبيلة ؟ وسيجد أبرز هذه الصفات الكريمة التي امتاز بها ، وأهم هذه الإصلاحات العظيمة التي حققها ، وباختصار سيجد بالتفصيل من هو البطل صلاح الدين ؟

فما أحوج أمة العرب والإسلام أن تستلهم من سيرة هذا البطل سبيلها إلى النصر ، وطريقها إلى العزة والكرامة ، وأن تأخذ من الماضي السني الباهر، ما يفيدها في الحاضر، وأن تستمد من المقومات التي مهدت للنصر في حطين ما يرشدها إلى النهج الأفضل في استرداد فلسطين ، عسى الله يأذن بالفتح أو نصر من عنده ، وما ذلك على الله بعزيز .

والله أسأل أن يلهم حكام المسلمين في كل مكان أن ينهجوا نهج صلاح الدين في التضحية والجهاد ، وأن يسلكوا سبيله بالإيمان والتقوى ، وأن يعملوا عمله في إقامة صرح المجد والوحدة . . إنه بالإجابة جدير ، وأكرم مأمول .

المؤلف

عبد الله ناصح علوان

الفصل الأول

أسرة صلاح الدين ونشأته

١ – نسب صلاح الدين :

ينتمي صلاح الدين إلى عائلة كردية ، كريمة الأصل ، عظيمة الشرف ، هذه العائلة ملكت مصر والشام وعرفت بالدولة الأيوبية ، وتنتسب هذه العائلة إلى قبيلة كردية تعد من أشراف الأكراد نسبًا وعشيرة ، هذه القبيلة تعرف (بالرَّوادية) [1] من بطون (الهذيانية) ،وهي من أكبر القبائل الكردية، ونجد بعض المؤرخين يتمحلون في بحثهم لينسبوا أسرة صلاح الدين في سلسلة من الآباء تنتهي عند مُضَر الذي ينتمي إلى عدنان، ولا شك أنهم يريدون من وراء هذا البحث الذي لا يتفق مع منهج البحث العلمي ولا مع الحقيقة المجردة ، أن يلحقوا كل شخصية فذة ليست عربية بسلسلة من النسب العربي ، وكأن الفضائل كلها ، والمكارم جميعها مقصورة على العرب وخاصة بهم ، وكأن المسلم غير العربي – في نظرهم القاصر – لا يمكن بحال أن يبني مجدًا ، أو يشيد حضارة ، أو يخلد ذكرًا .

ونحن لو استقرأنا التاريخ ، وبحثنا عن عظمائنا في بناء الحضارة الإنسانية لوجدنا أن أكثر أولئك الذين كان لهم في الحضارة سهم ، وفي التاريخ ذكر ، وفي الأجيال احترام، هم من مسلمي غير العرب . . إذن ! فلِمَ هذا التعصب الأعمى ؟ ولِمَ هذه العنصرية الممقوتة ؟ إن مبدأ الإسلام لا يتبدل : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ (الحجرات آية : ١٠) ، ومنهجه الثابت لا يتحول : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ (الحجرات آية : ١٣) ، فبأي حديث بعد هذا يؤمنون ؟

وينتسب صلاح الدين إلى نجم الدين أيوب بن شاذي بن مروان الكردي وسنفصل عما قريب عن منشأ هذه الأسرة ، وعن نبذة من حياتها وتنقلها وأهم أعمالهم .

---

[1] وهذه القبيلة كانت تسكن قرية يقال لها : " دوين " في أقصى حدود " أذربيجان " . وإلى قبيلة " الرَّوادية " ينتمي " أيوب بن شاذي " والد صلاح الدين .

٢ – ولادة صلاح الدين :

من هذه الأسرة العريقة في حسبها وشرفها ولد السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب سنة ٥٣٢ هـ الموافق ١١٣٧ م .

أما المكان الذي ولد فيه فهو قلعة (تكريت) وتكريت كانت بلدة قديمة أقرب إلى بغداد منها إلى الموصل ، وقد قامت في طرفها الأعلى قلعة حصينة راكبة على دجلة ، بناها ملوك الفرس منذ القدم على حجر عظيم ، وجعلوها مخازن للذخيرة ، ومرصدًا لمراقبة العدو ، ثم افتتحها المسلمون في السنة السادسة عشرة من الهجرة أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه [1] . وظلت (تكريت) تنتقل تحت دول المسلمين حتى كانت تحت حكم الدولة السلجوقية ، واتصل أيوب بن شاذي والد صلاح الدين بأحد رجال رئاسة الشرطة السلجوقية ببغداد واسمه " مجاهد الدين بهروز " فجعل أيوب حاكمًا على قلعة تكريت، وجعل معه أخاه " شيركوه أسد الدين " مساعدًا له ، وكانا أشبه بحاكم (تكريت) وكان هذان الأخوان قد قدما إلى العراق من قرية في أقصى حدود "أذربيجان " يقال لها : " دوين " في ناحية من إقليم "آران" وكانا من الأكراد الرَّوَادية فنزلا (تكريت) وعملًا في شرطة " بهروز " .

ومن عجائب القدر أن ولادة صلاح الدين كانت في اليوم الذي أمر فيه " مجاهد الدين بهروز " والي بغداد نجم الدين وأخاه شيركوه بمغادرة مدينة تكريت ؛ لقتل شيركوه عم صلاح الدين أحد قواد القلعة ، وذلك من أجل امرأة آذاها القائد في شرفها ، فانتقم (شيركوه) للشرف والمروءة حين استغاثت به فقتله ، ولكن بهروز وقع في حيرة من نفسه هل يبقيهما عنده أم يأمر بمغادرتهما ؟ فإن أبقاهما يخشى عليهما من انتقام القواد وأن يصيبهما الأذى ، فلم يجد بُدًّا سوى أن يأمرهما بالمغادرة ، فجاء بهما مظهرًا الخوف عليهما ، وطلب إليهما أن يخرجا في ليلتهما من تكريت ، فخرج الرجلان يقصدان (الموصل) وقد حملا أسرتيهما ، وفي رحل نجم الدين يوسف ابنه الطفل المولود صلاح الدين .

---

[1] معجم البلدان ٢ ص ٤٩١ .

ويذكر صاحب " وفيات الأعيان " أن أيوب قد تشاءم بمولوده الجديد صلاح الدين، وقد همَّ أيوب بقتل ولده عندما كان يصيح وهو طفل وهم خارجون من المدينة ، ولكن أحد أتباعه حذره من هذا العمل قائلًا : "يامولاي ، قد رأيت ما حدث عندك من الطيَرة والتشاؤم بهذا الصبي ، وأي شيء له من ذنب ؟ وبم استحق ذلك منك وهو لا ينفع ولا يضر ، ولا يغني شيئًا ؟ وهذا الذي جرى عليك قضاء من الله سبحانه وتعالى وقدر ، ثم ما يدريك أن هذا الطفل يكون ملكًا عظيم الصيت ، جليل المقدار ، ولعل الله جاعل له شأنًا فاستبقه فهو طفل ليس له ذنب ولا يعرف ما أنت فيه من الكدر والغمِّ" [1] .

ولقد أثرت هذه الكلمات في نفس أيوب ، وسرعان ما رجع إلى الحق ، وثاب إلى الرشد ، واتبع طريق الإسلام الصحيح .

٣ – نشأة صلاح الدين :

هاجر الأخوان نجم الدين أيوب وشيركوه من بغداد إلى الموصل ، حيث نزلا عند (عماد الدين زنكي) الذي رحب بالأخوين ترحيبًا عظيمًا ، وأجرى عليهما المنح والعطايا ، وما هذا الترحيب والإكرام إلا مكافأة على موقفهما المخلص في إنقاذهما له من القتل أو الأسر ؛ ذلك لأن عماد الدين زنكي صاحب الموصل قد حارب السلجوقية عند (تكريت) أيام كان (بهروز) واليًا على بغداد من قبل السلجوقيين ، وسبق أن ذكرنا أن نجم الدين أيوب ، وشيركوه كانا قائمين على تكريت وقلعتها من قبل بهروز، وكان من نتيجة حرب عماد الدين زنكي للسلجوقيين أن انهزم جيشه أمام جيش السلطان السلجوقي ، وفي أثناء انسحابه ورجوعه إلى الموصل مرَّ بتكريت وأصبحت حياته هو وجيشه في يد نجم الدين أيوب والى تكريت يومئذ إن شاء أبقاهم أحياء ، وإن شاء قتلهم ، ففضل نجم الدين الإحسان على الإساءة فقام هو وأخوه شيركوه بمساعدة عماد الدين وسهلا له أمر النجاة والسلامة حتى وصل إلى الموصل ، فكان لهذه المعاملة الحسنة ، والموقف النبيل أكرم الأثر ، وأحسن النتائج في بناء ملك أيوب ، وإقامة مجد الإسلام على يد صلاح الدين .

---

[1] الروضتين في أخبار الدولتين لأبي شامة .

ولما وصل الرجلان إلى الموصل لقيهما عماد الدين كما ذكرنا بالترحاب، وجازاهما على ما صنعا من الجميل عند تكريت ، فأقطعهما أرضاً ليعيشا عنده معزَّزين مكرمين .

عاش نجم الدين وأخوه شيركوه ومعهما المولود صلاح الدين في رعاية عماد الدين بأحسن مظاهر العز والإكرام ، وأسند إليهما أعمال الجيش ، ولما سقطت (بعلبك) في يد عماد الدين زنكي سنة ٥٣٤ هـ عهد بها إلى نجم الدين أيوب وعينه واليًا عليها ، وفي هذا الاختيار برهان قاطع على مقدار وثوق عماد الدين زنكي بنجم الدين أيوب ، وتمام الإخلاص له ، وحسن الاعتماد عليه . فقضى صلاح الدين في بعلبك بعض سنيِّ طفولته ، وتعتبر هذه السنوات الأولى التي قضاها في بعلبك من أسعد السنين وأهنئها، ولاشك أنه درج على العز ، ونشأ على الفروسية ، وتدرب على الحرب والجهاد ، ومارس السياسة وتدبير الأمور ، وكما يقول الشاعر :

وينشأ ناشئ الفتيان فينا   على ما كان عوده أبوه

أما المدة التي قضاها في دمشق بعد استيلاء نور الدين بن عماد الدين زنكي عليها فكانت من أفضل الأيام التي أظهرت شخصية صلاح الدين الفذة ، فكان محل احترام وتقدير ، بل كان له من الاعتبار والمكانة ما لابن حاكم دمشق نفسه ، وقد ظهر أمام المجتمع بمظهر الشاب الهادئ المهذب المتدين ، المتقد غَيْرة على الإسلام والمسلمين بما طبع في نفسه من أخلاق نور الدين الذي أنزله لديه منزلة خاصة .

ومن المناصب التي أسندت إليه في دمشق – في عهد نور الدين – منصب رئاسة الشرطة ، وقد قام بهذا المنصب أحسن قيام ، واستطاع أن يطهر دمشق من عبث اللصوص ، ومن شرور المفسدين ، فأعاد الأمن والاستقرار في ربوع الشام ، وبات الناس يأمنون على أنفسهم وأموالهم ، وينعمون بنعمة الحياة الهادئة المطمئنة الكريمة . . ولعل حسان بن نُمير المعروف " بعرقلة " الدمشقي يوضح في فرحته بيوسف صلاح الدين لتسلمه رئاسة شرطة بلده ، وذلك حيث يقول :

رويدكم يالصوص الشام فإني لكم ناصح في المقال
أتاكم سميّ النبي الكري م يوسف رب الحجا والجمال
فذلك يَقطع أيدي النساء وهذا يقطّعِ أيدي الرجال

أما المدة التي قضاها صلاح الدين في مصر فتعد من أعظم الأيام التي أظهرت بطولته الفائقة ، وحنكته الحربية النادرة ، وذلك أن " شاور السعدي " عندما ثار ضد الخليفة الفاطمي " العاضد " سنة ٥٥٨ هـ توجه إلى دمشق مستنجدًا بنور الدين محمود ، وبعد تردد استجاب نور الدين لطلب " شاور " فبعث معه قائده " أسد الدين شيركوه " وكان من ضمن رجاله الأفذاذ ابن أخيه صلاح الدين الذي أظهر البراعة العظيمة ، والعبقرية الفذة في فنون الحرب والقتال ، فبتدبيره وذكائه وحسن تصرفه استطاع مع عمه أسد الدين أن يضم المملكة المصرية إلى نور الدين محمود ، وكان ذلك سنة ٥٦٤ هـ وسيأتي تفصيل ذلك في الفصل القادم إن شاء اللّه .

نخلص مما تقدم أن صلاح الدين نشأ في السنين الأولى من طفولته ، وفي العقد الثاني والثالث من شبابه على الفضائل الكريمة ، والخصال الحميدة ، واكتسب من مجالسته للأمراء ، ومن مصاحبته للقواد العادات الأصيلة ، والمهارة الحربية ، والغيرة الإسلامية ، والشجاعة المادية والأدبية ، وهذا ما أهله – باستحقاق وجدارة – لأن يكون الشخصية الفذة النادرة التي هزت الدنيا وحولت مجرى التاريخ . .

٤ – تعليم صلاح الدين :

سبق أن ذكرنا أن صلاح الدين قضى في بعلبك سني طفولته الأولى ، فمن الطبيعي أن يختلف إلى مكاتب التعليم ليتعلم منها القراءة والكتابة ، ويحفظ القرآن الكريم ، وبالإضافة إلى هذا تعلم من العلماء قواعد اللغة ، ومبادئ النحو كما يتعلم أولاد أمراء المسلمين .

يقول صاحب كتاب طبقات الشافعية : " وسمع صلاح الدين الحديث من الحافظ أبي طاهر السلفي ، وأبي الطاهر بن عوف ، والشيخ قطب الدين النيسابوري ، وعبد اللّه بن بري النحوي وجماعة

" واستطرد يقول : " وكان صلاح الدين فقيهًا يقال : إنه يحفظ القرآن الكريم ، والتنبيه في الفقه ، والحماسة في الشعر " .

ومما أجمع عليه المؤرخون أن العلماء كانوا يفدون إلى دمشق أيام نور الدين من الشرق والغرب ، ومن سمر قند ومن قرطبة ليعلِّموا ويتعلموا في مساجدها ومدارسها ، ومن المؤكد أن صلاح الدين قد استمع إلى أكثرهم . ولا سيما عندما كان يجلس في الجامع الأموي (عبد اللّه بن أبي عصرون) يلقي محاضراته هناك ليستفيد الناس من علمه ومن فضله ، ويقتبسوا الكثير من توجيهه وخلقه . . وعبد اللّه بن أبي عصرون هذا هو الذي أحضره نور الدين ، وابتنى له المدارس في دمشق ، وأمهات مدن الشام ، ليدرِّس فيها وينشر العلم في طول البلاد وعرضها ، وقد بلغ هذا العالم من المكانة والمنزلة أنه وصل إلى مركز قاضي قضاة الجزيرة ، ومن أعظم ما تحدث به التاريخ عن إخلاص صلاح الدين لهذا الشيخ أن قد أبت عليه مروءته إلا أن يقرب هذا الشيخ من مجلسه عندما فقد بصره ، بل جعله من أخص خواصه .

أما تعليمه الفروسية والرمي والولوع بالصيد ، وتدريبه على الأعمال الحربية ، فحدث عنها ولا حرج . . وهذا ما أعانه إبان الحروب على قيادة الجند ، والتصرف في المآزق تصرفًا حكيمًا مُنجيًا . . ومن البديهي أن ينشأ صلاح الدين على هذا المنشأ ؛ لأن العصر الذي درج فيه هو عصر فروسية وصيد وقلاع . فاجتمعت لديه الموهبة والذكاء والوراثة وملاءمة البيئة مع التعليم والتدريب ، وهذه خصال قلما تجتمع في رجل مثل صلاح الدين .

ومن الأمور التي جعلت صلاح الدين في مصاف العظماء الخالدين هو : ثبات جنانه ورجاحة عقله حين تزول عقول من حوله ، وتخفُّ قلوبهم وتطير . .

في أثناء فتوحاته لبلاد الشام جاءه من حلب خبر بقتل أخيه تاج الملوك ، وجاءه إبان هزيمة عكا خبر بموت أخيه الملك المظفر وكان من أعظم مهندسيه في تحصين القلاع وتدبيرها وحراستها ، فلم يتغير مظهره في المعركتين ، ولم يَطِرْ قلبه في الخبرين وذلك حين جاءه بريد السرِّ بموت هذا وقتل ذاك . .

من هذه اللمحة الخاطفة عن حياته ، ومن تلك الدراسة الموجزة عن نشأته ، تظهر لنا شخصية صلاح الدين سياسيًا بارعًا ، وقائدًا محنّكًا ، وفارسًا مدربًا ، وعالمًا جليلًا . . وكأن الأقدار قد هيأته ليكون بطل حطين يملأ قلوب الإفرنج رعبًا وفزعًا ، ويطير ذكره في البلاد شرقًا وغربًا ، وتتخذه الأجيال الواعية أسوة وقدوة ، ويضعه التاريخ في مصاف العظماء الخالدين . .

وهيهات أن تلد الأمهات مثل صلاح الدين غيرةً وبطولة وجهادًا للدفاع عن معاقل الإسلام ، وأرض الأنبياء !.

أولئك آبائي فجئني بمثلهم ... إذا جمعتنا يا جرير المجامع

* * *

الفصل الثاني

ابتداء حكم صلاح الدين

١ – حالة مصر الفاطمية :

كانت مصر قبيل ظهور صلاح الدين نهبًا للثورات الداخلية والمنازعات ما بين الطوائف المختلفة من مماليك أتراك وسودانيين ومغاربة ، وكانت المجاعات والأوبئة تغشاها وتنهك من قواها ، وكانت اغتيالات الخلفاء والوزراء تدبر بأشكال مختلفة ومتنوعة .

فالخليفة الفاطمي أصبح لا يمثل شيئًا إنما الأمر بيد المتغلبين من الوزراء والقواد . وكم جرت مذابح ومعارك من أجل الوزارة في الخلافة الفاطمية ! ولم تستقر الحالة إلا بتولية (طلائع بن رُزّيك) للوزارة سنة ٥٤٩هـ ولكنه ما إن قتل سنة (٥٥٨ هـ – ١١٦٣ م) وتولى ابنه (رُزِّيك بن طلائع) حتى عادت الفوضى من جديد .

وكان كلٌّ من نور الدين محمود ، وملك بيت المقدس أموري الصليبي ينظر إلى مصر نظرة خاصة . ويود ضمها إليه لتعزيز جانبه ، ولا يمنع كلًّا منهما عن احتلالها إلا خوفه من الآخر . وكانت الخلافات الداخلية من أجل الوزارة الفاطمية موجبة لتدخُّل كل من نور الدين وأموري في السياسة المصرية ، وباعثة بهما إلى النزاع من أجل مصر .

٢ – ثورة شاور السعدي :

عندما انتصب رُزيك بن طلائع وزيرًا للخلافة الفاطمية ثار ضده شاور ابن مجير السعدي الوالي على مصر العليا ، واستطاع أن يتغلب على رُزِّيك ويقتله ، وأن ينتصب وزيرًا للخليفة الفاطمي العاضد مكانه ، وذلك في المحرم سنة (٥٥٨ هـ – ١١٦٣ م) .

وأساء شاور السعدي وأبناؤه السيرة مما جعل أحد القواد ضرغام بن عامر اللخمي يتواطأ مع الخليفة الفاطمي ضد الوزير شاور فثار عليه وألجأه إلى الفرار ، وانتصب ضرغام على كرسي الوزارة . فتوجه شاور السعدي إلى دمشق مستنجدًا بنور الدين محمود ، متعهدًا إليه بنفقات الحملة ، وغرامة سنوية قدرها ثلث إيراد البلاد المصرية ، ولكن نور الدين محمود تلكأ وتردد في إجابة طلب شاور السعدي إلى أن حدث ما أزال هذا التردد ، فقد جاءت الأخبار مُعلمة بأن أموري (ملك بيت المقدس) هجم على مصر وتغلب على ضرغام ، فحالفه وأقر له بالجزية خوفًا من تحالف شاور السعدي مع نور الدين محمود ، هنا اضطر نور الدين محمود إلى إجابة طلب شاور السعدي إنقاذًا للموقف ، فبعث معه قائده أسد الدين شيركوه وكان من ضمن رجاله البطل الشاب صلاح الدين الأيوبي ابن أخ أسد الدين . وسرعان ما انتصر أسد الدين شيركوه على ضرغام ، وانتصب شاور السعدي على الوزارة من جديد ، إلا أن شاور لم يَفِ بما تعهد لنور الدين محمود من التزامات ، بل حالف مملكة بيت المقدس سرًّا، فاضطر أسد الدين لمحاربته بمساعدة البطل المظفر صلاح الدين ، واستنجد شاور السعدي بملك بيت المقدس واستطاعت الجيوش الشامية أن تصمد أمام الجيوش المصرية والصليبية في مدينة بلبيس من رمضان ذي الحجة سنة ٥٥٩ هـ – ١١٦٤ م ، وانتهز نور الدين محمود اشتغال ملك بيت المقدس بحرب مصر ، فتوجه إلى حصن حارم ، وحصن بانياس وفتحهما ، فخشي ملك بيت المقدس أموري على مملكته وأخذ يفاوض أسد الدين شيركوه في عقد هدنة بينهما ، وتمت الهدنة على شرط انسحابهما عن مصر وتركها لأصحابها ، وعلى هذه النتيجة انتهت الجولة الأولى من النزاع على مصر بين نور الدين والصليبيين .

٣ – الدور الثاني من النزاع على مصر :

استفاد أسد الدين شيركوه من ذهابه الأول إلى مصر ، إذ سبر أغوار المملكة المصرية وعرف ما فيها ، وأيقن بضرورة الاستيلاء عليها للتغلب على الصليبيين . لهذا أخذ يهون أمرها على نور الدين ، ويطلب منه الإذن في احتلالها ، وأذعن نور الدين أخيرًا لرأي قائده فجرَّد حملة ثانية على مصر سنة

٥٦٢ هـ بقيادة أسد الدين شيركوه ومساعدة البطل صلاح الدين . وما أن سمع الوزير شاور بتوجيه الجيوش الشامية إلى مصر حتى بعث إلى أحلافه الصليبيين فأسرع إلى نجدته (أموري) ملك بيت المقدس. وتقابل الجيشان في صعيد مصر قرب (المُنية) ، فانتصرت الجيوش الشامية سنة ٥٦٣ هـ انتصارًا باهرًا ، وأظهر الشاب صلاح الدين الأيوبي براعة وثباتًا منقطع النظير، ثم سارت الجيوش الشامية شمالًا إلى الإسكندرية فدخلتها دون مقاومة تذكر، وأقام أسد الدين ابن أخيه صلاح الدين حاكمًا عليها ، وكانت هذه المرة الأولى التي تولى فيها صلاح الدين الإمارة وتحمل المسؤولية ، وكأن القدر قد هيأ له المجال لإظهار مواهبه ، وإبراز بطولته وعبقريته . . فإنه ما إن توجه عمه أسد الدين إلى الفسطاط والقاهرة حتى هاجم الصليبيون الإسكندرية وحاصروها برًّا وبحرًا بمساعدة الأسطول البيزنطي ، واشتد الضيق على المحصورين بالإسكندرية وكادوا يستسلمون . ولكن صلاح الدين القائد الملهم والبطل المحنك أظهر من الجلد والبراعة والمقاومة . . إلى أن أدركه عمه شيركوه ، وانتهى هذا الدور بعقد هدنة التزم فيها الطرفان بالانسحاب عن مصر وتركها لأصحابها .

٤ – الدور الثالث والأخير من النزاع على مصر :

لم يكن ملك بيت المقدس (أموري) مخلص النية في الهدنة السابقة ، إذ لم يسحب كامل جيشه عن مصر ؛ لأنه كان ينوي الاستيلاء عليها متى ابتعدت الجيوش الشامية عنها ، وما إن اطمأن لهذا حتى جرد حملة على البلاد المصرية ، واستولى على مدينة بلبيس ، وفتكت جيوشه بالسكان وذبحوا الكثير منهم ، وأغراهم هذا الانتصار فتقدموا إلى الفسطاط ، وخاف الوزير شاور من استيلاء الصليبيي ن عليها ، فأشعل فيها النيران التي استمرت ٥٤ يومًا فأتت عليها تمامًا ، وتقدم الصليبيون إلى القاهرة وناصبوها الحصار ، وأجرى شاور السعدي مفاوضات مع الصليبيين ، وأحكم التأجيل لهذه المفاوضات ريثما تصل الجيوش الشامية التي بعث يستنجد بها .

ولما كان نور الدين محمود عازمًا على الاستيلاء على مصر ، فقد انتهز الفرصة مرة أخرى ، وأرسل للمرة الثالثة قائده شيركوه بمعية صلاح الدين ابن أخيه ، وما إن وصلت الجيوش الشامية وانضم اليها الجيش المصري حتى بادر الصليبيو ن بالانسحاب ، وفك الحصار دون قتال .

ودخل شيركوه إلى القاهرة دخول القائد المنقذ ، فهلّل له الناس واستبشروا به ، وقربه الخليفة الفاطمي العاضد منه وخلع عليه ، ثم دبرت مؤامرة ضد شاور السعدي فقتل سنة ٥٦٤ هـ وانتصب أسد الدين شيركوه وزيرًا للخلافة الفاطمية ، ولكن لم تدم وزارته أكثر من شهرين فتوفي في جمادى الثانية سنة ٥٦٤ هـ – ١٦٦٩ م .

٥ – تحليل وتعقيب :

يتبين من هذه المواقف التي وقفها صلاح الدين مع عمه أسد الدين شيركوه في معارك مصر مع الصليبيين والجيوش المصرية أن صلاح الدين شخصية نادرة في الشجاعة والحنكة والسياسة والخبرة في فنون الحرب والقتال ، وكأن الأقدار قد هيأته منذ نعومة أظفاره وتدرج شبابه ، ليكون الشخصية الفذة في التاريخ ، والبطل العظيم في معارك التحرير مع الإفرنج الصليبيين ، ولا شك أن المعارك الأولى التي خاضها مع عمه في حروب مصر زادته قوة وخبرة ، وملأت نفسه إيمانًا وثقة ، وكشفت عن بطولته النادرة التي كان لها الدوي الهائل في مسامع التاريخ ، وسيأتي معنا في الفصل القادم سياسته الفائقة في ضم البلاد مع بعضها البعض تحت وحدة سياسية شاملة ، وجبهة إسلامية واحدة ، وهذا من العوامل الأَساسية التي أقضت مضاجع الصليبيين وحققت الانتصار في حطين ، وأصبح لهذا الانتصار في التاريخ ذكر ، وفي الأجيال المتعاقبة قدوة . .

الفصل الثالث

صلاح الدين في مصر

١ – صلاح الدين وزيرًا للفاطميين :

مات (أسد الدين شيركوه) بعد شهرين من توليته الوزارة ، وأقام له صلاح الدين العزاء ثلاثة أيام ، وفكر الخليفة (العاضد) الفاطمي في اختيار وزير له ، فقر قراره النهائي على اتخاذ (يوسف صلاح الدين) خلفًا لعمه (ش يركوه) في الوزارة رغم صغر سنه ، ورغم وجود كبار القواد والشخصيات الكبيرة ضمن الجيش الشامي المرابط بمصر ، ويعلل بعض المؤرخين بأن أسباب هذا الاختيار : هو أن الخليفة الفاطمي (العاضد) كان يرجو التغلب على صلاح الدين ، وأنه سيكون رهن طوعه وإشارته نظرًا لصغر سنه ، ولكن الأقدار هيأته لغير هذا كما سيأتي .

استُوزر صلاح الدين وعمره ٣٢ سنه بعد أن دربته الحروب ، وأخذ من دروسها وعبرها أيام مخالطته لنور الدين وعمه (شيركوه) ، وهذا ما كان سببًا في علو شأنه ، وظهور أمره .

ورأى صلاح الدين من الحكمة أن يرضي المصريين حتى لا يقوى أمراؤهم بهم عليه، فأغدق نعمًا كثيرة ، وعاملهم باللطف من أخلاقه ، وبالسماحة من معاملته ، مما حببهم فيه ، وقربهم إليه .

ومما زاد شهرته ، وأظهر أمره ، انتصاره على الإفرنج بعد غزوهم (دمياط) (وغزة) واستيلاؤه على مدينة (العقبة) ، وهي مفتاح البحر الأحمر لطريق الحجاج المصريين خاصة ، والمسلمين عامة إلى مكة المكرمة ، فكان هذا النصر العظيم ، وتأمين طريق الحج للمسلمين عاملًا كبيرًا من عوامل تبادل الثقة والمحبة والإخلاص بينه وبين المصريين ، وهذا من الأسباب التي دفعت المصريين أن يتركوا المذهب الشيعي ، وينضموا إلى إخوانهم السنيين تحت راية صلاح الدين يقاتلون معه عدوّ الله وعدوهم من الكفرة الظالمين ، والصليبيين الحاقدين .

٢ – قضاؤه على المؤامرات الداخلية :

سبق أن ذكرنا أن صلاح الدين لما تقلد منصب الوزارة كان في ريعان الشباب ، لذا كان موضع حسد كثير من رجال الدولة الذين عملوا في ظل الدولة الفاطمية ، فاعتبروه دخيلًا عليهم ، ومغتصبًا لحقوقهم ، وفضلًا عن ذلك كانوا يعملون على تثبيت حكم الفواطم في مصر مهما كلفهم ذلك من ثمن . . فلم يألوا جهدًا في تدبير المؤامرات ، وبث الدسائس عسى أن يتخلصوا من الوزير الشاب الطموح صلاح الدين.

ومن أبرز هذه المؤامرات :

(أ) مؤامرة مؤتمن الخلافة نجاح .

(ب) مؤامرة عمارة اليمني .

(ج) مؤامرة كنز الدولة .

(أ) مؤامرة مؤتمن الخلافة نجاح :

ففي عام ٥٦٤ هـ قام مؤتمن الخلافة نجاح وهو خصي كان بقصر (العاضد) آخر الخلفاء الفاطميين في مصر ، وكان له الحل والربط في قصر الخلافة ، فاتفق هو وجماعة من المصريين على مكاتبة الفرنج ، واستدعائهم إلى البلاد ليقووا بهم على صلاح الدين ومن معه .

فكتب هذا العبد الخصيُّ كتابًا إلى الإفرنج يحضهم فيه على الزحف على مصر حتى إذا وصلوا وخرج إليهم صلاح الدين ، وزحف مؤتمن الخلافة بجموعه ، واقتفى أثره ، فيقع صلاح الدين بين نارين ، فلا يبقى لصلاح الدين ومن معه باقية ، ولما كتب (مؤتمن الخلافة) الكتاب وضعه داخل نعل جديدة وأعطاها إلى رجل من رجالاته ليذهب بها إلى الإفرنج ، فوقعت النعل في يد أحد أتباع صلاح الدين ، وسرعان ما أوصلها إليه ، فعلم صلاح الدين الحقيقة لكنه لم يظهرها ، ولم يعاقب مؤتمن الخلافة فورًا حتى لا تثور ثائرة أتباعه ومؤيديه ، فما زال صلاح الدين يمهله ويطاوله حتى خرج ذلك المؤتمن الخائن يومًا إلى قصر له خارج القاهرة وأرسل إليه جماعة أخذوه وقتلوه . فأحدثت ردة الفعل أن قام جند الخليفة

السودانيون – وكانوا حوالي خمسين ألفًا – للانتصار لمؤتمن الخلافة المقتول ، ووقعت الواقعة بين جند الخليفة السودانيين وبين جند صلاح الدين ودامت يومين كاملين ، وكان الانتصار الساحق في هذه الموقعة لصلاح الدين ، وهكذا قضى صلاح الدين على مؤتمن الخلافة نجاح ، وعلى فتنة الجند السوادنيين الذين ثاروا لمقتله .

ولم يكن السوادنيون وحدهم في إثارة الدسائس ، وحبك المؤامرات ، بل كان لأمراء الفاطميين ضلع كبير في إثارة الخلاف ، وإشعال نيران الحرب والفتنة .

(ب) مؤامرة عمارة اليمني :

ومن المؤامرات الكبرى التى قامت ضد صلاح الدين مؤامرة المؤرخ المعروف (عمارة اليمني) ، فقد جمع عمارة كثيرًا من الأنصار في القاهرة ودعا إلى تنصيب رجل من أولاد العاضد ليعيد حكم الفواطم ويزيل حكم صلاح الدين ، وسرعان ما كاتب الإفرنج في ذلك ليستعين بهم على تقويض حكم صلاح الدين ، وقتله والقضاء عليه نهائيًا ، ولقد استطاع عمارة أن يضم إلى حركته الكثيرين ممن جمعهم الحقد والكراهية على الدولة الناشئة ، فالتفَّ حوله الكثير من أولئك الحاقدين على صلاح الدين ، والمبغضين له والمتألبين عليه .

لكن أحد المتآمرين وهو زين الدين بن نجا ، وشى بخبرهم إلى صلاح الدين ابتغاء المكأفاة ، فقبض صلاح الدين عليهم وقتلهم وجعلهم عبرة لكل من يريد لهذه الدولة سوءًا ، أو يبغي في الأرض فتنة ، ويعيث فيها فسادًا وكان ذلك سنة ٥٦٩ هـ .

(ج) مؤامرة كنز الدولة :

ومن المؤامرات التي واجهها صلاح الدين في مصر مؤامرة قامت في أسوان وقوص وكان ذلك سنة ٥٧٠ هـ .

يقول المقريزي في كتابه " السلوك لمعرفة دول الملوك " عن هذه المؤامرة والفتنة : "وفي سنة ٥٧٠ هـ جمع (كنز الدولة) والي أسوان العرب والسودان ، وقصد القاهرة ، يريد إعادة الدولة الفاطمية ،

وأنفق في جموعه أموالًا جزيلة ، وانضم إليه جماعة ممن يهوى هواهم ، فقتل عشرة من أمراء صلاح الدين وخرج في قرية (طود) رجل يعرف بـ " قياس بن شادي " وأخذ بلاد (قوص) ، وانتهب أموالها ، فجهز صلاح الدين أخاه الملك العادل في جيش كثيف . . فسار وأوقع بشادي ، وبدد جمعه وقتله ، ثم سار فلقي (كنز الدولة) ناحية (طود) ، وكان بينهما حروب فرَّ فيها كنز الدولة، بعد ما قتل أكثر عسكره ، ثم قتل (كنز الدولة) في سابع صفر ، وقدم الملك العادل إلى القاهرة في الثامن عشر من صفر" .

وهكذا استطاع صلاح الدين أن يقطع دابر الفتن ، وأن يقضي على شراذم البغي والعدوان ، ومدبري المكائد والمؤامرات ، وهذا يدل على نباهته الدائبة ، وسهره الدائم على مصالح الرعية ، وينطبق عليه بحق قول الشاعر المتنبي :

على قدر أهل العزم تأتي العزائم   وتأتي على قدر الكرام المكارم

وتعظم في عين الصغير صغارها   وتصغر في عين العظيم العظائم

قضاؤه على المؤامرات الخارجية :

بعد تسلم صلاح الدين منصب الوزارة في مصر وقف الفرنج يرقبون تحركاته بحذر، ويتطلعون إلى أخباره بلهفة ، وكان أشد ما يخشونه منه أن تجتمع عليه القلوب ثم يمضي في تحرير الأرض المقدسة ، وفي ذلك طعنة لهم وقضاء عليهم ، لهذا شمر الفرنج عن ساعد الجد والعمل يتربصون بصلاح الدين الدوائر ، ويحيكون الدسائس ، وينتظرون الوقت الذي يمكن فيه التخلص منه والقضاء عليه . وكانت أول محاولة من جانب الفرنج أثناء وجود صلاح الدين في مصر هي مهاجمة دمياط ، إذ أنه لما استقر الأمر لصلاح الدين في مصر ، شعر الفرنج في الشام بالخطر يهددهم ، فكاتبوا الفرنج بالأندلس وصقلية يحرضونهم على الثورة ، ويذكرون لهم خوفهم على بيت المقدس ، وأرسلوا جماعة من القساوسة والرهبان يحرضون الناس على التمرد ، وأمدُّوهم بالمال والرجال والسلاح .

وسرعان ما نزلت جنودهم دمياط عام ٥٦٤ هـ وضيقوا عليها الخناق، فأرسل إليهم صلاح الدين الجيش في النيل ، وزودهم بالأسلحة والذخيرة وطلب من نور الدين أن يعاونه في دحر صفوفهم ، فاستجاب نور الدين وأرسل الحملات العسكرية تلو الحملات إلى مصر ، ولم يكتف بذلك بل سار فيمن معه من العساكر إلى إمارات الفرنج في الشام وفلسطين ، فلما رأى الفرنج تتابع العسكر إلى مصر ، ودخول نور الدين بلادهم ، رجعوا من حيث أتوا خائبين مدحورين ، وكان مقامهم بدمياط خمسين يومًا .

لم تمر خمس سنوات على حصار الفرنج لدمياط حتى هاجم أهل صقلية من الفرنج الإسكندرية ، وكان ذلك في أواخر عام ٥٦٩ هـ .

ولما سار الأسطول على الشاطئ نزل من مراكبهم ألف وخمسمائة فرس، وكان عدتهم ثلاثين ألف مقاتل بين فارس وراجل مجهَّزين بآلات الحرب والحصار ، وبالمراكب والطرائد والمجانيق والمؤن . . وعندما نزلوا إلى الساحل قتلوا من المسلمين سبعة، كما أغرقت سفنهم في الميناء بعض سفن المسلمين ، ونصبوا في البر ثلاثمائة خيمة ، ثم زحفوا لمحاصرة الإسكندرية .

وكان صلاح الدين في ذلك الوقت في (فاقوس) ، وعرف أخبار نزولهم في اليوم الثالث ، فشرع في تجهيز العساكر ، وإعداد آلات القتال لمنازلة الغزاة المعتدين . لم يكد يلتحم الفريقان حتى أيد اللّه جند صلاح الدين بنصره ، واستمر القتال حتى عصر اليوم الرابع من نزولهم ، فلم يمض الليل حتى أصلاهم صلاح الدين نارًا حامية ، وأغرق سفنهم وقتل كثيرًا منهم ، وانهزم من بقي يولون الدبُر ، وغنم جيش صلاح الدين كثيرًا من الآلات والأمتعة والأسلحة ، وبذلك استطاع هذا البطل أن يحطم حصارهم، وأن يفرق جمعهم ، وأن يمزقهم شرَّ ممزَّق ، فرجع من بقي منهم إلى بلادهم خزايا نادمين .

هكذا استطاع هذا البطل الملهم أن ينجي مصر من عدوان الفرنج ومؤامرتهم الدنيئة مرتين في فترتين متلاحقتين ، وهذا يدل دلالة بينة على أن صلاح الدين كان السيف المصلت على رقاب المعتدين الظالمين ، بل كان الأسد الهصور في الذبِّ عن عرين الإسلام وثغور المسلمين .

٤ – الخطبة للخليفة العباسي :

بعد أن قضى صلاح الدين على المؤامرات الداخلية والخارجية واستأصل شأفتها ، وقلع جذورها ، وثبت أقدامه في مصر ، فأراد أن يتقدم خطوة أخرى في سبيل الاستقلال .

رأى البلاد يبالغ أهلها في التشيع لآل البيت فليس من شيء يحولهم عن مذهبهم هذا سوى الدعوة إلى سيرة أهل السنة والجماعة التي هي عقيدة الأكثرية الساحقة من أبناء العالم الإسلامي ، فأسس مدرستين كبيرتين : المدرسة الناصرية ، والمدرسة الكاملية حتى يحوِّل الناس إلى المذهب الحق ، ويمهد البلاد للتغيير الذي يريده ، ولقد صادفت رغبته هذه إلحاح (نور الدين محمود) بتغيير خطبة يوم الجمعة ، وجعلها باسم الخليفة العباسي (المستضيء) بدل الخليفة الفاطمي (العاضد) ، وما كان نور الدين وحده هو الذي يلح على صلاح الدين بذلك ، بل كان العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه يترقب مثل هذه الخطوة ، وإليك ما قاله العماد مخاطبًا صلاح الدين في هذا :

ردَّ الخلافة عباسيَّة ودع الدعيَّ   فيها يصادفُ شر منقلب

لاتقطعن ذنب الأفعى وتتركها   الحزم عندي قطع الرأس كالذنب

فرأى صلاح الدين من الحكمة انتظار الفرصة الملائمة في تبديل الخطبة ريثما يتم له الدعوة السنيَّة من جهة ، ويتمكن من جذب جميع المصريين إلى جانبه من جهة أخرى.

فلما مرض الخليفة الفاطمي (العاضد) ، وكثر الإلحاح من نور الدين جمع خاصته واستشارهم ، فقام من وسط القوم عالم أعجمي يقال له : "الأمير العالم " وأخذ على عاتقه القيام بالأمر كله ، ثم أخذ سبيله إلى المسجد ، وخطب للخليفة العباسي ، فأمر صلاح الدين أتباعه بعدم إخبار الخليفة الفاطمي لمرضه ، وقال للناس : إن عوفي فهو يعلم ، وإن توفي فلا ينبغي أن نفجعه بمثل هذه الحادثة قبل موته ، وقوبلت الخطبة للخليفة العباسي بسكون وهدوء عجيب ، " ولم ينتطح فيها عنزان "كما يقول ابن الأثير في تاريخه ، فقد توفي (العاضد) وبوفاته انقرضت الدولة الفاطمية في مصر ، وكان ذلك عام ٥٦٧ هـ – ١١٧١ م .

وبموت (العاضد) أصبح صلاح الدين سيد مصر ، ليس لأحد فيها كلمة سواه ، وقام صلاح الدين بمأتم العاضد وقَبِلَ التعازي ثلاثة أيام ، وأكرم أهله وأحسن إليهم ، فكانوا محل رعاية صلاح الدين وعنايته الفائقة .

٥ – سياسته مع نور الدين :

وما أن تولى صلاح الدين مقاليد الأمور في مصر بعد موت الخليفة الفاطمي حتى زاد في تحسين العلاقات بينه وبين نور الدين حتى لا يشعر أنه يريد الانفصال عنه والاستئثار بالحكم ، بل تجنب كل ما من شأنه أن يشتمَّ منه رائحة الخروج عليه للصلة المتينة التي كانت بينهما في عهد عمه شيركوه ، وللإحسان الذي أغدقه نور الدين عليه حين كان في مقتبل العمر ، وريعان الشباب .

فلم تمض فترة قصيرة من الزمن حتى أقام الخطبة في المسجد لنور الدين بعد الخليفة العباسي ، وضرب النقود باسمه ، وأرسل له الهدايا الثمينة من كنوز القصر . . وهذا كله إظهار للفضل ، واعتراف بالجميل ، وتحديد للولاء . .

وفي هذه الفترة التي كان صلاح الدين يحكم فيها مصر أراد بعض الوشاة من أمراء الجيش الذين امتنعوا عن خدمته ، وأبوا الإقامة معه في مصر أن يوغروا صدر نور الدين، وأن يؤججوا بينهما نار العداوة والبغضاء . .

وقد أثرت محاولتهم الدنيئة بعض التأثير ، وكادت تقع بينهما اضطرابات وفتن ، ولكن العقلاء استطاعوا أن يتداركوا الأمر ، وأن يحذروا الطرفين مغبّة العداوة ، وأنه سوف لن يستفيد من هذا الخلاف إن وقع سوى العدو المتربص بهم ، والمترقب لخصوماتهم . . ولم تمض فترة قصيرة حتى عاد الصفاء إلى قلبي البطلين ، ورجعت الثقة والمحبة إلى نفسيهما ، واستمر صلاح الدين تحت الولاء الاسمي لنور الدين إلى أن توفي عام ٥٦٩ هـ – ١١٧٣ م .

من استعراض هذه الأعمال التي أنجزها صلاح الدين في مصر ، وهذه المؤامرات التي تغلب عليها ، تتراءى للقارئ شخصية هذا البطل وحنكته السياسية ، وحزمه وحسن تدبيره للأمور .

ففي هذا العهد زالت كل عقبة كانت تقوم في وجه صلاح الدين ، بل أصبح في فترة قصيرة سيدًا للشرق المسلم بلا منازع ، والقائد المؤمل لمعارك التحرير ، وكأن القدرة الإلهية قد هيأته لمحو العار الذي حاق بالمسلمين من احتلال الصليبيين للمسجد الأقصى في فترات طويلة من التاريخ ، وسنرى في الفصول القادمة كيف استطاع صلاح الدين أن يوحِّد البلاد تحت إمرته ، وأن ينتصر على الفرنج في معركة حطين الحاسمة ، وكيف أنه أعاد للإسلام عزته الرفيعة ، وللمسلمين مجدهم المؤثل العريض و ﴿ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ () .



الفصل الرابع

صلاح الدين في الشام

١ – الحالة في الشام بعد وفاة نور الدين :

توفي (نور الدين) وترك ملكه إلى ولده الملك الصالح إسماعيل ، ولم يكن يبلغ من العمر حينذاك إلا الحادية عشرة ، فتولى وصايته وتدبير ملكه شمس الدين ابن المقدم ، فأخذ الأمراء النوريون في الشام يتنافسون ، كل منهم يعمل على إضعاف الآخر ، والكيد له ، والإيقاع به ، والملك الصغير لا يدري من الأمر شيئًا .، بل كان ألعوبة في يد أولئك الأمراء الذين كانو يتصارعون للوصول إلى الحكم ، وتحقيق مآربهم الشخصية .

نهض سيف الدين ابن عم الملك الصالح ، وصاحب الموصل ، واستولى على ما كان لنور الدين من البلاد في أرض الجزيرة وركن الأمراء الآخرون إلى الاستقلال بما في أيديهم من الولايات ، ولجأ البعض الآخر إلى مهادنة الفرنج ليتقووا بهم ضد الأمراء الآخرين ،، وهكذا وصلت البلاد إلى حالة يرثى لها من التفرق والانقسام والصراع على الحكم ، وكأن الأقدار هيأت صلاح الدين لينقذ البلاد من هذا الانقسام الشائن والتفرقة الممقوتة .

٢ – مراسلة الدمشقيين لصلاح الدين :

كان صلاح الدين على علم بما يجري في بلاد الشام من فوضى وصراع وقلاقل ، وكان يرقب الأحداث مراقبة دقيقة ، كان ينتظر الفرصة الملائمة للتدخل ، وكان من سياسته أن لا يثير غضب أهل الشام عليه فى تدخل غير ملائم خشية أن يقفوا ضده ، ويعرقلوا أعماله ، ولهذا كان على الدوام يكتب إلى الملك الصالح إسماعيل فيظهر له خضوعه وولاءه ، فضرب النقود باسمه ، وخطب له على المنبر ، وبالتالي أظهر للشاميين شدة خوفه على مصالح الملك الصغير ابن سيده وأستاذه وصاحب نعمته .

وعندما علم الدمشقيون أن سيف الدين استولى على بلاد الجزيرة ليستقل بها ، وأن شمس الدين ابن المقدم وصي الملك الصغير قد هادَن مملكة بيت المقدس الصليبية واصطلح معها ، وأن الأمراء النوريين أصبحوا يتنافسون على الحكم للوصول إلى أغراضهم الشخصية ، فلم يجدوا بدًّا سوى أن يراسلوا صلاح الدين لإنقاذ الموقف ، والحد من استمرار الفوضى والفتن التي سادت البلاد الشامية ، بل طلبوا إليه أن يحضر بنفسه ، ويتولى الأمور بشخصه لينقذ البلاد من خطر داهم ، وشر محدق ، وبلاء عظيم. . وهذا ما كان !

٣ – توجه صلاح الدين إلى دمشق :

ما كان لصلاح الدين أن يتمنى أكثر من هذه الدعوة لتكون مبررًا له عند أهل الشام في تدخله في شؤون البلاد ، فلم يتأخر لحظة واحدة ، بل أسرع بالمسير ، فاخترق الصحراء دون أن يكترث بوجود الفرنج بينه وبين دمشق ثقةً بالله وبنفسه ، واعتمادًا منه على قوته .

ترك صلاح الدين مصر فوصل بصرى وقابله أميرها بالترحاب والتكريم ، وبعدها رحل إلى دمشق فوصلها في شهر ربيع الأول عام ٥٧٠ هـ – ١١٧٤ م ودخل دار أبيه وجلس فيها قليلًا حتى سلَّمت له القلعة ، فذهب إليها واستولى على ما فيها من الأموال والكنوز ، ولم يفكر صلاح الدين في يوم من الأيام أن يجعل السلطة أداة استغلال لجمع الأموال وتكديس الثروات ، والانغماس في الترف والنعيم ، بل عاش عيشة الكفاف ، ومات ولم يكن عنده شيء من المال كما سترى في فصل المناقب والصفات إن شاء الله .

ولكن ماذا فعل صلاح الدين بهذه الأموال والكنوز التي حصل عليها وأصبحت في حوزته ؟ إنه وزعها على الفقراء والمستحقين ليحقق في المجتمع مبادئ العدالة الاجتماعية ، ويقضي على الجهل والفقر والمرض . . بما يتفق مع عدل الإسلام وتعاليم القرآن .

ولقد خرجت الوفود الشعبية في مواكبها الفخمة تعبر عن فرحتها الكبرى ابتهاجًا بدخول من تعقد عليه الآمال العريضة في توحيد البلاد ، وتحرير بيت المقدس ، وترسيخ الكيان الإسلامي في العالم كله .

وقد أقبل الشعراء يحركون همته للجهاد ، ويثيرون حميته للنصر المرتقب، ومن ذلك قول (وَجيش الأسدي) :

قد جاءك النصر والتوفيق واصطحبا فكن لأضعاف هذا النصر مرتقبا

لّله أنت صلاحَ الدين من أسدٍ أدنى فريسته الأيام إن وَثبا

رأيت جلَّقَ ثغرًا لا نظير له فجئتها عامرًا منها الذي خَربا

نادتك بالذل لما قلَّ ناصرُها وأزمع الخلق من أوطانها هربا

أحييتَها مثل ما أحييتَ مصرَ فقد أعدتَ من عدلها ما كان قد ذهبا

هذا الذي نصر الإسلام فاتَّضحت سبيلُه وأهان الكُفْر والصُّلُبا

يستكثر المدح يُتْلى في مكارمه زهدًا ويستصغر الدنيا إذا وهبا

والشامُ لو لم يدرك أهله اندثرتْ آثارُهُ وعفتْ آياتُه حُقُبا

ومن ذلك قول (نشو الدولة أبي الفضل) :

أتى بعدما نادت دمشقُ لُبعده إلى ربّها : تالّله مسّني الضرُّ

فلله حمدٌ لا يزال مجدّدًا على ما حبا من فضله وله الشكرُ

أتاح لنا من بعد يأس مُبَرَّحٍ مليكًا غدًا من بعض خدّامه الدهر

ولِمَ لا يحوز الأرض شرقًا ومغربًا ولّله في إعلاء رتبته سرٌّ

وجلس صلاح الدين في دار العدل بدمشق يرفع المظالم ، ويعيد الحقوق إلى أصحابها ، ويبطل ما كان الولاة قد استجدُّوه من الضرائب غير العادلة ، فوقف (سعادة بن عبد اللّه) يسجل له سهره على العدالة ، ويدعوله بدوام التوفيق ويقول :

في دار عدلٍ مذ طلعت بأفقها بدارًا جلَوْتَ الظلمَ عن سكانها

فبقيتَ معتصبا بتاج بهائها في دَست مجلسها ، وفي إيوانها

ما أصبحت أيدي الرعيَّة تجتني عفوًا ثمار الأمن من بستانها

وبعد أن رسخت قدم صلاح الدين في دمشق ذهب يؤكد في مكاتباته ومحادثاته المرة تلو المرة أنه ما جاء إلى بلاد الشام إلا لنصرة ابن سيده الملك الصالح اسماعيل ، ومن ذلك ما قاله لرسول حلب بعد امتلاكه دمشق : "ياهذا ! . . اعلم أنني ما وصلت إلى الشام إلا لجمع كلمة الإسلام ، وتهذيب الأمور ، وحياطة الجمهور ، وسد الثغور وتربية ولد نور الدين ، وكف عادية المعتدين " .

٤ – استيلاء صلاح الدين على حمص وحماه وحلب :

وبعد أن انتهى صلاح الدين من فتح دمشق ، أقام فيها قليلًا بعد أن أصلح ما فسد فيها ، ورتّب شؤونها ، وسلمها إلى أخيه (سيف الإسلام طغتكين) ، ثم انحدر منها إلى حمص ، ففتحها دون قلعتها ، فترك من يحاصرها ، ويحمي المدينة ، ويدبر شؤونها ، ثم سار إلى حماه ، وكان الوالي عليها (عز الدين جورديك) أحد أولئك الذين كانوا معه في الحملة الثالثة على مصر ، امتنع والي حماة أولًا عن الاستسلام ، ولكن صلاح الدين أعلم الوالي (جورديك) أنه جاء ليحفظ البلاد من الفرنج ، ويسترد ما استولى عليه سيف الدين صاحب الموصل من البلاد في الجزيرة ، وأنه في طاعة الملك الصالح إسماعيل ، فاقتنع والي حماة من كلامه ، فسلمه حماة، ثم قبل جورديك أن يكون رسولًا لصلاح الدين إلى (سعد الدين كمشتكين) صاحب حلب.

وسعد الدين هذا هو الذي اغتصب ولاية حلب من حاكمها الأصلي (شمس الدين بن الداية) واستلم مكانه ، وأودع (ابن الداية) وأولاده وغيرهم من الأمراء السجن ثم انحاز إلى الفرنج ليتقوى بهم .

فلما أن أرسل صلاح الدين رسوله (جورديك) إلى (سعد الدين كمشتكين) مغتصب الولاية الحلبية من (ابن الداية) أوصاه أن يطلب منه فك الأسرى ، وإطلاق سراح ابن الداية ، وما أن وصل (جورديك) إلى حلب وأخبر (كمشتكين) برسالة صلاح الدين حتى أودعه السجن مع ابن الداية فأصبح من المسجونين . ولا شك أن (كمشتكين) هذا سيتحمل مسؤولية عمله ، وأن صلاح الدين

سيكون له بالمرصاد ، وسوف يتوجه إليه ليحاسبه على ما جنت يداه في حق من أودعهم السجن ظلمًا وعدوانًا .

ولكن (كمشتكين) لم يقف عند هذا الحد ، فأرسل إلى شيخ طائفة الاسماعيلية [١] (راشد الدين سنان) المتمركز (بمصياف) أرسل ليه رسولًا يطلب النصرة والمؤازرة ، فأرسل (راشد الدين سنان) جماعة تغتال صلاح الدين ، فلحقوا به وهو معسكر بتّل (جوشن) مكان مدينة سيف الدولة في غربي حلب الحالية ، وحاولوا أن يصلوا إلى خيمته فلم يتمكنوا ، وردهم العسكر بعد قتال سقط فيه قتلى من الجانبين ، ثم حدث اعتداء آخر من قبل هذه الطائفة الخبيثة : فبينما كان صلاح الدين يدخل (عزاز) التابعة لإقليم حلب سنة ٥٧١ هـ دخل – فدائيوهم – كعادتهم إلى خيمته ، وقد أحكموا هذه المرة أمرهم ، وكانوا ثلاثة ، ودخلوا في زيّ حراس صلاح الدين وجنده ، و ما كاد الأول يدخل حتى وثب على صلاح الدين ، غير هائب من جند ولا سلاح فضرب رأسه بسكين كادت تقضي عليه لولا الدروع التي كان يرتديها ، فوقاه اللّه منهم ، وحبطت مؤامرتهم . ونشبت معركة بين فدائيي الإسماعلية وحراس السلطان ، وجرح بعضهم بعضًا بالمدى والخناجر ، ثم ثار العسكر كله وهم للنجدة ففروا ، وأخذ يتبعهم ويقتل من يلحق به منهم ، وقد بيت لهم السلطان نية الثأر، فحين عاد من حلب في العام التالي مال إلى قلعتهم في مصياف غربي حماة ، ونصب عليها المنجنيق وأوسعهم قتلًا وأسرًا ، وساق أمامه ما نهبوه من دواب الناس وأموالهم وخرب ديارهم ، وجعلهم عبرة للمعتبرين .

فلما خاب (كمشتكين) في متمناه هذا عمد إلى ناحية الفرنج ليستعين بهم على قتال صلاح الدين ، فأرسل الفرنج جيشًا بقيادة (ريموند الثالث) ، وفورًا فك صلاح الدين حصار حلب ، وتوجه إلى قتال الفرنج جهة حمص ، ولكن الفرنج لما علموا أن صلاح الدين يقصدهم عادوا من حيث أتوا ، فسار إلى دمشق ، واستولى في طريقه على (بعلبك) .

---

[١] **يقول الإمام الغزالي في رسالة " فضائح الباطنية عن مبادئ الإسماعيلية " : إن مذهبهم ظاهره الرفض (أي التشيع) وباطنه الكفر المحض ، والمنقول عنهم : الإباحة المطلقة ، ورفع الحجاب ، واستباحة المحرمات ، وإنكار الشرائع إلا أنهم بأجمعهم ينكرون ذلك إذا نسب إليهم " وينسبون إلى إسماعيل بن جعفر الصادق .**

ومن المصاعب التي واجهت صلاح الدين في هذه المرحلة : تألب أمراء النوريين ضده، وانقلابهم عليه ، وذلك للأسباب التالية :

نظر الملك الصالح وأتباعه من الأمراء النوريين إلى ما وصل إليه أمر صلاح الدين ، وما استولى عليه من البلاد الشامية ، فخافوا أن يتمكن أكثر ، ويصبح الأمر إليه ، فراسلوا (سيف الدين غازي) صاحب الموصل وطلبوا منه أن يقدم لمساعدة ابن عمه الملك الصالح ، وفي الحال قام بتجنيد الجنود، وجمع الذخيرة والمؤن ، وواصل السير بها حتى اجتمع بابن عمه الملك الصالح ، وانضم جيشه إلى جيش حلب ، وقصدوا جميعًا صلاح الدين ، ولكن صلاح الدين أراد في أول الأمر أن يعالج الأمور بالحكمة، فراسلهم في الصلح ورغبهم فيه حقنًا لدماء المسلمين ، وحتى لا يتخذ الفرنج من هذا النزاع سبيلًا إلى إثارة الفتنة ، ومن العروض التي قدمها لهم للصلح تسليمه كل البلاد التي استولى عليها ، على أن يبقى في دمشق نائبًا للملك الصالح فيها ، فأبوا عليه إلا أن يسلم كل ما بيده ، ويعود إلى مصر فورًا ، فلم يجد بدًّا بعد رفضهم لهذه العروض سوى أن ينازلهم ويقف في وجوههم .

إذا لم يكن إلا الأسنة مركبٌ فما حيلة المضطر إلا ركوبها

فتجهز لهم وخرج يقصدهم ، فنازلهم بالقرب من حماه ، وانتصر عليهم يوم التاسع من رمضان عام ٥٧٠ هـ انتصارًا حاسمًا حتى أصبح الواحد منهم لا يلوي على أخيه من شدة فزعه وخوفه ، وما زالوا في الفرار وهو من ورائهم يستولي على أثقالهم حتى دخلوا حلب فحاصرهم بها ، وبعد هذه الهزيمة عاد (سيف الدين) إلى بلده (الموصل) يستعد ثانية لقتال صلاح الدين ، ولكن صلاح الدين لحق به ، وتقابلا في مكان يعرف (بتل السلطان) ، وانتصرت جنود صلاح الدين على صاحب الموصل انتصارًا باهرًا ، وقد أسر عدد كبير من جنود الموصل ، ووقعت غنائمهم كلها في قبضة صلاح الدين .

أما صلاح الدين فإنه سار بماغنم إلى (بزاعة) وتسلم قلعتها ، ثم سار إلى (منبج) واستولى عليها ، ثم قصد قلعة (عزاز) فضيَّق عليها الحصار حتى استسلمت له ، ثم توجه مسرعًا إلى حلب ثانية يريد الاستيلاء عليها ، وفي أثناء حصاره لحلب خرجت له ابنة نور الدين وأخت الملك الصالح

وكانت صغيرة السن ، فقابلها صلاح الدين بالحفاوة والإكرام ، وأعطاها من المال والهدايا الثمينة الشيء الكثير ، وسألها عما يطلبه قومها فقالت : إنهم يريدون (عزاز) فوهبها لهم وردها إلى حلب بما يليق بمقام أبيها من التجلّة والاحترام إذ أوصلها بنفسه إلى أسوار المدينة .

لما رأى الملك الصالح شدة حصار المدينة اتفقت كلمته مع قومه على قبول الصلح على أن تكون البلاد التي افتتحها صلاح الدين بيده وتحت حكمه ، وبموجب هذا الصلح أصبح صلاح الدين سيدًا على دمشق وحمص وحماه والمعرة ، وما قارب هذه البلاد من المدن الصغيرة والقلاع ، ولم يكن للملك الصالح سوى حلب وما قاربها .

وبعد هذا الصلح رجع صلاح الدين إلى مصر ليتفقد أمرها ، وينظم أمورها ، وكان ذلك سنة ٥٧٦ هـ . ولم يكد صلاح الدين يرجع إلى مصر حتى وافاه الخبر بموت الملك الصالح إسماعيل وله من العمر ١٩ سنة ، وأوصى أن يكون المُلْكُ من بعده لابن عمه (عز الدين مسعود) والي الموصل إذ ذاك ، وبلغ (عز الدين مسعود) ، وصية الملك الصالح فغادر فورًا الموصل إلى حلب ليتسلم زمام الملك هناك ، وما كاد يطيب له المكان حتى كتب له أخوه (عماد الدين) والي (سنجار) في أن يستبدل (عز الدين) سنجار بحلب ، فأجابه إلى ما طلب ، فرحل (عماد الدين) إلى حلب وتسلمها منه ، وسلم سنجار إلى أخيه (عز الدين مسعود) وكان ذلك في ١٣ محرم عام ٥٧٨ هـ .

وأخيرًا استطاع صلاح الدين أن يخضع لحكمه عماد الدين فتم له فتح المدينة ، ودخل صلاح الدين حلب بين فرح الأهالي وسرورهم ، وابتهاج الناس وحفاوتهم ، وكان ذلك يوم ١٧ صفر سنة ٥٧٩ هـ .

وأخذ الشعراء والخطباء يشيدون بفضله ، ويعدُّون مآثره الكريمة ، وبطولاته الخالدة، ومن عجيب ما وقع أن (محيي الدين بن الزكي) قاضي دمشق مدح السلطان بقصيدة جاء فيها :

وفتحكم حلبا بالسيف في صفر ... مبشر بفتوح القدس في رجب

وقد اتفق أن تم فتح القدس في رجب بعد أربع سنوات من تاريخ فتح حلب .

ومن هؤلاء الذين هنأوا السلطان بفتح حلب (يوسف البراعي) الذي أنشد قصيدة قال منها :

شَرُفت بسامي مجدك الشهباء وتجلَّلتها بهجة وضياء

ألقتْ إليك قيادها وبها على كل الملوك ترفُّعٌ وإباء

وقال أبو طيٍّ النجار من القصيدة يبين فيها مكانة حلب :

حلبُ شامةُ الشام وقد زي دتْ جلالًا بيوسف وجمالا

هي أُسُّ الفخار من نال أعلا ها تعالى فخامةً وتغالى

ومحلُّ العلاء مَن حلَّ فيها تاه كبرًا وعزةً وجلالا

ومن حواها مُمَلَّكًا ملك الأر ض اقتسارًا : سهولة وجبالا

وخلاصة القول : أن صلاح الدين أخذ في ذلك الدور الذي أقامه في بلاد الشام يبذل كل ما في وسعه لمواجهة القوى الثلاث : مؤامرات الإسماعيلية ، وقوى الإفرنج ، وتألب أمراء النوريين . . هذه القوى جميعًا تحالفت ضده لتحول بينه وبين تحقيق الوحدة الإسلامية بين العراق والشام ومصر ، فلقد رأينا أن صلاح الدين قد تغلب على كل هذه القوى جميعًا بما أعطاه الله من حكمة ، وما وهبه من قوة وعزم ومضاء .

وسنرى في الفصل القادم كيف استطاع هذا البطل أن يوحد البلاد الإسلامية تحت إمرته ، وأن ينفخ فيها روح الجهاد بصيحاته وإخلاصه ؟ ليواجه عدوًّا لدودًا ، وصليبية حاقدة . . وهذا ما كان ، وما تحقق . وستستمع نبأ النصر الخالد بعد حين .

الفصل الخامس

البلاد التي توحدت تحت إمرته

١ – منذ أن توفي السلطان نور الدين تهيأت للبطل صلاح الدين الفُرص المواتية لتوحيد العالم الإسلامي تحت لوائه وإمرته . واستطاع بفضل مواهبه العسكرية ، وخبرته الحربية والسياسية أن يوحد البلاد الواحدة تلو الأخرى . فقد كانت الطوائف في اليمن تتصارع في عهد صلاح الدين ، وتقتتل قتالًا مريرًا مما عرض الوحدة الإسلامية للتفكك والتمزق ، فكانت الحمدانية في (صنعاء) والنجاحية في (زبيد) تتنازعان على الحكم، كما ظهر دعيٌّ كاذب زعم أنه (المهدي المنتظر) ، فأحدث بعض القلاقل والاضطراب في بلاد اليمن ، فانتشرت المذابح ، وعمت الفوضى ، وسادت الفتن ، فعزَّ على صلاح الدين أن يرى الشعب المسلم يقتل بعضه بعضًا ، وتكيد الطائفة للطائفة الأخرى فأرسل أخاه توران شاه إلى بلاد اليمن لتخليصها من هذه الفتن التي ضربت أطنابها ، ودبت في طول البلاد وعرضها ، ليضمها إلى مصر والشام تحت إمرة واحدة .

٢ – سار توران شاه بجنده عن طريق النيل حتى وصل إلى مدينة (قوص) ، ثم سار بَرًّا حتى بلغ ساحل البحر الأحمر ، ثم أبحر حتى وصل (جدة) ، وبعدها وصل إلى اليمن ، وتوغل في أرضها واستولى على مقاطعة (زبيد) وعلى بعض الحصون الأخرى، ويذكر بعض المؤرخين أنه فتح وحده ما ينوف عن ثمانين حصنًا ومدينة باليمن ويظهر أن اليمنيين ارتاحوا إلى مجيئه لما كان يعانيه اليمن من الفوضى والاضطراب ، بل كان اليمنيون أنفسهم يسهلون للقائد توران شاه أمر فتحها ، فكان نواب القلاع يرسلون إليه مفاتيحها حقنًا للدماء ورغبة في الاستقرار ، ولما تم له فتح اليمن استشار (توران شاه) أصحابه وخاصته في اختيار المكان المناسب ليتخذه موطنًا له ولجنده فوقع الاختيار على مدينة (تعز) فاتخذها مستقرًّا وموطنًا .

٣ – وما إن تم فتح اليمن حتى ولَّى صلاح الدين عليها أخاه (توران شاه) ، ثم أخاه (طغتكين بن أيوب) الذي بقي فيها حتى مات سنة ٥٩٣ هـ وتولى ولاة الأيوبيين على اليمن ما يقارب أكثر من ثمانين عامًا من عام ٥٦٩ هـ حتى عام ٦٥٢ هـ .

٤ – وفي العام الذي تم فيه فتح اليمن استطاع صلاح الدين أن يفتح برقة وطرابلس، والجزء الشرقي من تونس الحالية ، إلى قابس وكان ذلك عام ٥٦٩ هـ .

٥ – وفي عام ٥٧٩ هـ استد عى صلاح الدين أخاه (الملك العادل) لحضور المؤتمر الإسلامي الذي تم عقده في دمشق لسفراء الأمراء المسلمين ، ومنهم شيخ الشيوخ (صدر الدين) ، (وشهاب الدين بشير) رسولا الخليفة الناصر لدين اللّه العباسي ، والقاضي (محيي الدين الشهرزوري) ، (وبهاء الدين بن شداد) سفيرا صاحب الموصل، وسفير (معز الدين سنجر) صاحب الجزيرة ، وغيرهم كثير من السفراء . . وقد حاول صلاح الدين في هذا المؤتمر أن يقطع دابر الخلاف بين الأمراء المسلمين ، وأن يقيم بينهم الأخوة والوئام . وقد اجتمعت كلمتهم على الاتحاد ، ولم يشذ في هذا الاجتماع سوى مندوب (الموصل) الذي دارت بينه وبين صلاح الدين مناقشات حادة لم تأت بالنتيجة المرجوة .

٦ – ولما لم يستجب صاحب الموصل إلى الانضواء تحت راية الأخوة الإسلامية اضطر صلاح الدين أن يحمل السلاح لردع صاحب الموصل ، ورده إلى الحق والرشد، فتقدمت جيوش صلاح الدين إلى الموصل فحاصرتها ، فرضخ (عز الدين) صاحب الموصل وتَّم الصلح بينه وبين صلاح الدين سنة ٥٨١ هـ بمقتضى (معاهدة حران) على أن يسلم (عز الدين) صاحب الموصل إلى صلاح الدين (شهر زور) وأعمالها ، وولاية (القرابلي)، وجميع ماوراء نهر الزاب من أعمال ولاية (تفجاك) ، وأن يتخلى صلاح الدين عن الموصل على أن تكون الخطبة والنقود باسم صلاح الدين ، وأن يخضع (عز الدين) صاحب الموصل لسياسة صلاح الدين .

ويقول ابن واصل في كتابه " مفرج الكروب في تاريخ بني أيوب " : "إن صلاح الدين استطاع بعد (معاهدة حران) أن يحشد عساكر الموصل، وسنجار والجزيرة ، وأربل ، وحران ، وديار بكر وغيرها تحت لواء واحد ، بعد ما كانت شيعًا وأحزابًا " .

٧ – ومن الأمور التي عمد إليها صلاح الدين في هذا الدور مراسلته للخليفة العباسي (المستضيء) ، فكتب إليه وزيره (القاضي الفاضل) كتابًا يذكر به ما لصلاح الدين على الخلافة في بغداد من مآثر كبيرة بجهاد العدوِّ وفتح مصر واليمن وإفريقية ، وإقامة الخطبة العباسية ، وطلب تقليدًا جامعًا لمصر والمغرب واليمن والشام .

وكل ما تشتمل عليه الدولة النورية ، وكل ما يفتحه اللّه للدولة العباسية بسيوفه وسيوف عساكره ، ولمن يقيمه من أخ أو ولد بعده ، فأجابه (المستضيء) لما أراد ، وأرسل إليه وفدًا بالتقليد بما شاء من الولايات ، وأفاض الخُلع والهدايا على الوفد وعلى أقرباء السلطان .

٨ – تبين من الذي قدمناه آنفًا أن البلاد التي وحَّدها صلاح الدين أصبحت ممتدة الأطراف ، واسعة الأرجاء ، فقد كان سلطانه ينشر أجنحته على جهات كثيرة من الرملة إلى حوض النيل ، ويمتد ظله فيعم سواحل إفريقية الشمالية حتى طرابلس ، وأخضع بلاد اليمن وعدن ، واستولى على سواحل طرابلس وتونس حتى مدينة (قابس) ، وخطب له على المنابر في هذه الجهات كلها .

وإذا أضفنا إلى ملكه مصر والشام وشمال العراق فتصبح البلاد التي تحت إمرة السلطان صلاح الدين شاملة لشمال العراق (كردستان) والشام واليمن ومصر والمغرب وسواحل إفريقية الشمالية .

ولا شك أن الأمة الإسلامية من أقصاها إلى أقصاها عقدت أملها الأكبر على البطل صلاح الدين ، واستبشرت خيرًا في تحقيق وحدة المسلمين على يديه ، ولقد حان الانقضاض– بعد هذه الوحدة المتراصة – على دولة الصليبيين في القدس ، وجعلها أثرًا بعد عين في معركة حاسمة ، لها في التاريخ دوي ، وفي الأجيال افتخار وإعجاب .

٩ – وقد رأى الشعراء أن في توحيد صلاح الدين للبلاد تحت حكمه صلاحًا للبلاد، وعزًّا للإسلام ، بعد أن شقيت هذه البلاد بحكام لا يصلحون لتدبير الملك ، ولا لإدارة شؤون الرعية ، يصف ذلك ابن سناء الملك فيقول :

مَمالك لم يدبرها مدبّرُها إلا برأي خصيٍّ أو بعقل صبي

حتى أتاها صلاح الدين فانصلحت من الفساد كما صحَّت من الوصب [١]

ويرون في هذه الفتوح ، وتوحيد كلمة البلاد تمهيدًا لفتح القدس ، وتحريرها من الصليبية الحاقدة اللئيمة ، ونصر كلمة الإسلام ، فهذا الفتح به تتم الفتوح ، وهو لها الغاية والأمل والسيادة الكاملة .

يقول العماد الأصبهاني من قصيدة :

بفتوح عصرك يفخر الإسلام وبنور نصرك تشرق الأيام

أسدى صلاح الدين والدنيا يدًا بنوالها سوق الرجاء تُقام

فتملَّ فتحك واقصد الفتح الذي بحصوله لفتُوحكَ الإتْمام

دُم للعلا حتى يدوم نظامها واسلم يعز بنصرك الإسلام

---

[١] الوصب : المرض .

الفصل السادس

تآمر الصليبية وحروبها في المشرق [1]

١ – ماهية الحروب الصليبية :

الحروب الصليبية عبارة عن الحملات العسكرية التي قامت بها أوروبا الصليبية خلال قرنين من الزمن قصد استخلاص بيت المقدس من أيدي المسلمين من جهة ، والحدّ من الزحف الإسلامي الذي أصبح يغزو العالم من جهة أخرى .

٢ – أسبابها ودواعيها :

لهذه الحروب أسباب ودواع كثيرة نذكر أهمها :

(أ) **ما تحمله الصليبية من حقد دفين ضد الإسلام والمسلمين** نتيجة دخول بيت المقدس في عدل المسلمين ، ونتيجة الفتوحات الإسلامية التي امتدت إلى مناطق آسيا ، وأفريقيا وأوربا التي كانت من قبل تحت النفوذ النصراني .

(ب) **تهديد القسطنطينية بالاحتلال** من طرف السلاجقة المسلمين بعد أن أصبحوا على مقربة منها . فاستنجد الإمبراطور (ألكسيس كومنين) بالدول النصرانية ضد المسلمين .

(ج) **حجاج بيت المقدس النصارى** الذين كانوا إذا رجعوا إلى أوربا يهوّلون ويكذبون فيما يلاقيه النصارى من المسلمين من ظلم وإرهاق ، وكان من ألمع هؤلاء الحجاج ذكرًا ، ومن أشدهم عزما في إثارة الفتنة وتأليب النصارى ضد المسلمين الراهب الفرنسي " بطرس الناسك " .

[1] أكثر بحوث هذا الفصل اقتبستها بتصرف من كتاب " الحروب الصليبية في المشرق والمغرب " لمؤلفه محمد العروسي ص ١٩ و ص ٣٩ ـ ٤٠

(د) **الحماس الديني :** من الرغبة في إنقاذ بيت المقدس من أيدي المسلمين ، وغفران الذنوب والخطايا لكل مشارك في الحروب الصليبية ، وكانت المجامع الكنسية، وخطب الأساقفة والرهبان والبابا من أفعل الوسائل لإثارة ذلك الحماس الديني واستغلاله .

(هـ) **ميل الفاطميين بمصر إلى محالفة البيزنطيين المسيحيين** ضد السلاجقة المسلمين ، ليستعينوا بهم على استرداد ما احتله السلاجقة منهم . ومما هو جدير بالذكر أن البابا ألقى خطبة هامة في مجمع " كليرمون " بفرنسا الذي قررت فيه الحروب الصليبية سنة ٤٨٨ هـ ، ويمكن أن تعتبر تلخيصًا موجزًا لجميع ما ذكرناه من حقد دفين ، وعداوة ضارية ضد الإسلام والمسلمين ، فممّا قاله :

" وليست هذه الحروب لاكتساب مدينة واحدة بل هي أقاليم آسيا بجملتها مع غناها وخزائنها التي لاتحصى ، فاتخذوا محجَّة القبر المقدس وخلصوا الأراضي المقدسة من أيدي المختلسين ، وأنتم املكوها لذواتكم فهذه الأرض كما قالت التوراة تفيض لبنًا وعسلًا " [1] .

٣ – الحملة الصليبية الأولى واحتلال بيت المقدس :

في سنة ٤٨٦ هـ زار بيت المقدس الراهب الفرنسي " بطرس الناسك" ولما رجع اجتمع بالبابا ، واتفق على أن يكون داعية للحروب الصليبية ، أما البابا فإنه عقد أولًا مجمع (بليزانس) بشمالي إيطاليا ، ثم عقد مجمع (كليرمون) بفرنسا ، وهو الذي قررت فيه الحروب الصليبية .

واتفق الصليبيون على أن يكون لقاؤهم بمدينة (القسطنطينية) وسارت حملة أولى وكانت في غاية الفوضى والاضطراب ، ولما عبرت إلى آسيا الصغرى التقى بها (قليج أرسلان) السلجوقي قرب مدينة (نيقية) [2]فأبادها عن آخرها .

ثم قدمت الجيوش الصليبية الأخرى التي نظمها الإقطاعيون والأمراء : جاءت من جنوب فرنسا وشماليها ، ومن جنوب إيطاليا ، واجتمعوا كلهم في (القسطنطينية) ولما عبروا إلى آسيا الصغرى

---

[1] الأخبار السنة ١٣ .
[2] مدينة قرب القسطنطينية

اعترضهم (قليج أرسلان) فجرت لهم معارك كبرى ، ثم تقدموا إلى أنطاكية ، وبعد حصار دام أكثر من ثمانية أشهر استولوا عليها ، ثم سار الصليبيون في اتجاههم إلى بيت المقدس ، واحتلوها بعد شهر من حصارها سنة ٤٩٢ هـ – ١٠٩٩ م وفعلوا فيها ما تأباه الأديان السماوية ، والرحمة الإنسانية ، وقد ارتكبوا بحق المسلمين أشنع الأعمال وأفظعها ، وقد بلغ عدد القتلى من المسلمين سبعين ألفًا حتى أن الدماء سالت أنهارًا في المسجد الأقصى ، وفي الحارات والدروب التي تتفرع منه ، ويصف لنا ابن الأثير مظهر استياء المجتمع الإسلامي وقتئذ قائلًا : "وورد المستنفرون من الشام في رمضان إلى بغداد بصحبة القاضي (أبي سعيد الهروي) فأورد في الديوان كلامًا أبكى العيون، وأوجع القلوب ، وقاموا بالجامع يوم الجمعة فاستغاثوا وبكوا ، وذكروا ما دهم المسلمين من قتل الرجال ، وسبي الحريم والأولاد ، ونهب الأموال ، فلشدة ما أصابهم أفطروا " .

وبذلك استقر الصليبيون في البلاد الشامية وأسسوا على السواحل الشامية عدة إمارات ، امتدت من خليج الإسكندرونة إلى عسقلان ، ومن خليج العقبة إلى شمال الرُّها [1] .

٤ – من أسباب انتصار الصليبيين :

وكان من أهم أسباب نجاح الصليبيين في احتلالهم لبيت المقدس وما حوله ، ما كان عليه المجتمع الإسلامي من الانحلال والتدابر ، والنزاع والتخاصم . . ولم يستطع العدو أن ينفذ الى ديار الإسلام ، ويسيطر على الأماكن المقدسة ، ويستولي على مسرى رسول الله ﷲ إلا لما رأى حال الأمة الإسلامية وما هي عليه من تخاذل ، وضعف وانحطاط. . فانتهزها فرصة مواتية لينقضَّ على العالم الإسلامي ، ويأتي على بنيانه من القواعد ، ويجعل أعزة أهله أذلة . .

ولهذا نرى كثيرًا من مؤرخي تلك العصور يشيرون إلى تلك الحالة التي مُني بها المجتمع الإسلامي في الحرب الصليبية الأولى بمثل هذه الفقرات :

---

[1] هي مدينة (أورفا) الحالية بشرق تركيا .

(أ) بينما الفرنج يحاصرون ويحتلون القدس ، كان (محمد بن ملكشاه) السلجوقي يحارب أخاه لأبيه (بركياروق) .

(ب) مَلكَ الفرنج عكا من واليها العلوي . . هذا وملوك الشام مشتغلون بقتال بعضهم بعضاً .

(ج) انقسام البلاد الإسلامية على بعضها ، وكيد كل بلد للآخر ، وربما استعانت بعض البلاد بالإفرنج لقتال المسلمين .

إلى غير ذلك من النقول التي سجلها المؤرخون في تواريخهم كابن الأثير وغيره والتي تثبت استحقاق الأمة الإسلامية للاستعمار الصليبي الذي حل بها ، ونزل في ساحتها ، وما ظلمهم اللّه ولكن كانو أنفسهم يظلمون .

٥ – الحملة الصليبية الثانية مقدمة للانتصار في حطين :

سبق أن أشرنا أن الحالة السيئة التي وصل إليها المجتمع الإسلامي قبيل الحروب الصليبية كانت من أهم أسباب نجاح الصليبيين في احتلالهم لبيت المقدس ، ولم تكن هناك وسيلة للتغلب على الصليبيين إلا نهضة إسلامية شاملة توحد المشرق الإسلامي ، وتجمع شتاته ، لدحر العدو وقهره ، وقد بدأت بوادر النهضة تتحقق بنهضة آل زنكي بالموصل حينما كوَّن (عماد الدين زنكي) دولة قوية تمتد من الموصل إلى معرة النعمان سنة ٥٢١ هـ ، وأخذ (عماد الدين) يكيل الضربات للصليبيين الواحدة تلو الأخرى ، وكان من أعظمها على (الرها) سنة ٥٣٩ هـ وإزالة إمارتها ، وكان لعمل عماد الدين وجهاده الأثر الأكبر في إثارة الحرب الصليبية الثانية التي شارك فيها (لويس الرابع) ملك فرنسا ، (وكونراد الثالث) إمبراطور ألمانيا ، وعرض أن تتجه هذه الحملة الصليبية إلى أكبر خطر يهدد الصليبيين وهو قتال (نور الدين محمود) [١]الذي تولى ولاية القسم الغربي من المملكة بعد موت أبيه (عماد الدين الزنكي) ، فإن الصليبيين توجهوا إلي دمشق وحاصروها مدة قصيرة ثم رجعوا من حيث أتوا ، وكان فك الحصار عن

[١] لما توفي عماد الدين زنكي ترك عدة أبناء أكبرهم سيف الدين غازي ، ونور الدين محمود ، فاقتسم الأخوان المملكة بينهما : القسم الشرقي لسيف الدين غازي عاصمته (الموصل) ، والقسم الغربي لنور الدين محمود عاصمته (حلب) ، وكانت مملكة نور الدين محمود بهذا الوضع هي المتاخمة للممالك الصليبية ، وهذا من الأسباب التي أدت إلى الصراع .

دمشق سنة ٥٤٣ هـ ، وهكذا انتهت الحرب الصليبية الثانية بهذا الفشل الذريع ، والخيبة المرَّة ، مما أنعش المجتمع الإسلامي ، وقوَّى من معنوياته ، ومهد للنصر الأكبر في معركة حطين الحاسمة على يد البطل صلاح الدين .

***

الفصل السابع

صلاح الدين والانتصار في حطين

والحروب الصليبية

١ – الأسباب المباشرة لمعركة حطين :

سبق أن ذكرنا في الفصل الخامس أن صلاح الدين استطاع أن يكون مملكة عظيمة تشمل شمال العراق (الكردستان) والشام ، ومصر ، وبرقة . . وأنه يعد العدة لأجل أن يغزو الفرنج ، ويستخلص من أيديهم بيت المقدس ، والبلاد التي كانت خاضعة لحكمهم وسلطانهم . . وكان ينتظر الفرصة المواتية للانقضاض عليهم ، وتلقينهم درسًا لا ينسونه أبدًا . . للفظائع التي ارتكبوها ، والجرائم التي أحدثوها في بيت المقدس ومسجده الأقصى .

ولقد حانت الفرصة للانتقام لما اعتدى (أرناط) أمير (الكرك) على قافلة تجارية لصلاح الدين سنة ٥٨٢ هـ وإمارة الكرك هذه واقعة بين البلاد الشامية ، والبلاد المصرية ، وكان بين صلاح الدين وبين هذه الإمارة هدنة ومسالمة ، وكان من بنود الهدنة السماح للقوافل الإسلامية بالانتقال من مصر إلى الشام أو العكس في سلامة وأمن .

وكان من نتيجة اعتداء (أرناط) على القافلة الإسلامية مصادرة الأموال، وأسر الرجال ، ويروي المؤرخون أن قافلة المسلمين لما وقعت في قبضة الصليبي صاحب الكرك استهان بالدين الإسلامي ، وبالنبي عليه الصلاة والسلام ، وقال للأسرى : " إن كنتم تعتقدون في محمد فادعوه الآن يفك أسركم ، ويخلصكم من شر ما وقعتم فيه" ، فنُميَ هذا إلى السلطان صلاح الدين ، فغضب غضبًا شديدًا وحلف لئن أسره ليقتلنّه بيده وحقًّا برَّ السلطان في قسمه كما سنرى ، وكان هذا الاعتداء من قبيل الإفرنج الشرارة الأولى لاندلاع الحروب التي شنها صلاح الدين ضد الصليبيين والتي أذاقهم فيها كؤوس العذاب والردى ، بل ذاع اسمه فى أوربا وتناقلته ألسنة الأمهات ليخوفن أبناءهن باسم صلاح الدين ، مع

العلم أن هذا البطل عامل الأسرى والنساء والأطفال معاملة حسنة مما يعد مفخرة للتاريخ ، وقدوة للأجيال .

٢ – معركة حطين وفتح بيت المقدس :

وبعد هذا الاعتداء الفاضح أخذ السلطان صلاح الدين يعد العدة ويجمع الجيوش ، ويهيئ كتائب المجاهدين ليوقع النكال الشديد بالإفرنج قاطبة ، ويسترد أرض الإسراء ، ومهبط النبوات ما وجد لذلك من سبيل .

كان هذا الوقت وقت أوبة حجاج المسلمين ، فتأهب صاحب الكرك إلى اقتناصهم والاعتداء عليهم وهم راجعون ، واستعد صلاح الدين لحمايتهم بعد أن أعلن الجهاد في كل بلاده ، وعسكر في (قصر السلامة) بالقرب من (بصرى) وظل فيها حتى مرَّ الحجاج المسلمون بسلام آمنين مطمئنين ، ودعا الحجَّاج للسلطان صلاح الدين بالنصر والغلبة على قومٍ لا هم لهم إلا نكث العهود ، ونقض المواثيق ، أعماهم التعصب والحقد، وأغلظ قلوبهم الجهل والعداوة فأوقعهم في شر ما يصنعون .

وبعد أن جمع صلاح الدين الجموع ، ونظم الجيوش عقد مجلس شوراه للتشاور في منازلة العدو ، وتوقيت المعركة فاتفقوا على الخروج في ١٧ ربيع الآخر سنة ٥٨٣ هـ بعد صلاة الجمعة بين تكبير المسلمين وابتهالهم ، وتضرعهم بالدعاء [١] .

خرج صلاح الدين من دمشق ، ولما وصل رأس الماء جعله مركزًا لاجتماع الجيوش ، وبقي ولده (الملك الأفضل) برأس الماء وسار هو إلى بُصرى ، وسار (مظفر الدين كوكبري) إلى عكا ، ومن بصرى توجه صلاح الدين إلى حصن (الكرك والشوبك) ثم عاد إلى (طبرية) ولم يأل جهدًا رحمه الله

---

[١] وما أجدر المسلمين اليوم أن يفهموا هذه الحقيقة ، وأن يعلموا أن الإعداد للمعركة ، والوصول إلى النصر لا يكون بالدعاء فحسب ، ولا بالالتجاء إلى الله وكفى ، بل الإعداد الصحيح للمعركة لا يكون إلا بإعداد القوة المادية ثم منازلة العدو في الميدان ، وفي أثنائها يكون الابتهال والدعاء واللجوء إلى الله في إنجاز النصر ، وقهر العدو، وهذا ما صنعه البطل صلاح الدين، وما فعله الخلفاء من قبله ، بل تأسوا بهذا الصنيع بمواقف النبي ﷺ في بدر وأحد والأحزاب وحنين ، حين كان يدعو وهو في قلب المعركة مع العدو : " اللهم أنجز لي ما وعدتني ، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لن تعبد في الأرض " مع أخذ الأسباب المادية ، وما أحسن ما قال بعضهم في إظهار هذه الحقيقة :

خلفت جيلًا من الأصحاب سيرتهم ... تضوع بين الورى روحًا وريحانا
كانت فتوحاتهم برًّا ومرحمة ... كانت سياستهم عدلًا وإحسانا
لم يعرفوا الدين أورادًا ومسبحة ... بل أشبعوا الدين محرابًا وميدانا

في استنفار المسلمين ، واستنهاض هممهم للجهاد المقدس في سبيل اللّه ، وكان إذا رآه من رآه ، لا يراه إلا مهتمًّا مغتمًّا تعلوه كآبة الحزن والأسى . . بل كان عزوفًا عن الطعام لا يتناول من الغذاء إلا الشيء اليسير ، ولما سئل عن سبب ذلك أجاب : كيف يطيب لي الفرح والطعام ولذة المنام وبيت المقدس بأيدي الصليبيين ؟ قال صاحبه ومرافقه القاضي (بهاء الدين ابن شداد) يصف حاله في حروبه للصليبيين : "كان رحمه الله عنده من القدس أمر عظيم لا تحمله الجبال " وقال : " وهو كالوالدة الثكلى ، ويجول بفرسه من طلب إلى طلب ، ويحث الناس على الجهاد ، ويطوف بين الأطلاب بنفسه وينادي : يا للإسلام وعيناه تذرفان بالدموع ، وكلما نظر إلى عكا ، وما حلَّ بها من البلاء ، وما يجري على ساكنيها من المصاب العظيم ، اشتد في الزحف والحث على القتال ، ولم يطعم في ذلك طعامًا البتَّة ، وإنما شرب أقداح دواء كان يشير بها الطبيب ، ولقد أخبرني بعض أطبائه أنه بقي من يوم الجمعة إلى يوم الأحد لم يتناول من الغذاء إلا شيئًا يسيرًا لفرط اهتمامه " .

وأيقن الصليبيون باتساع الخطة التي دبرها صلاح الدين ضدهم ، فاجتمعت كلمة رؤسائهم وحشدوا جموعهم ، وتوجهوا إلى (طبرية) وتقابل الفريقان في مكان اسمه (حطين) أصبح الصباح وانتشرت حرارة الشمس المحرقة ، فأعانت المسلمين على الفتك بهؤلاء العطاش لاستيلائهم على مواقع المياه ، وهجم البطل صلاح الدين على الفرنج هجومًا عنيفًا فرق فرسانهم عن مشاتهم ، وتقهقرت فلولهم إلى تلال حطين من شدة ما لاقوا من الهول والشدة والعطش الشديد ، وبعد معارك ضارية بين الطرفين انتصر فيها صلاح الدين انتصارًا حاسمًا ، وانهزم الصليبيون هزيمة منكرة لم يفلت منهم أحد ، وكانوا بين قتيل وأسير ، وبلغ عدد قتلاهم عشرة آلاف ، وفي تلك الأثناء سقط "أسقف عكا " قتيلًا ووقع من بين يديه " صليب الصلبوت " فاستولى عليه المسلمون ، وكان ذلك من أعظم المصائب عليهم ، وأيقنوا بعده بالقتل والهلاك ، وهكذا ظلَّ المسلمون يزحفون نحو قمة الجبل وأمامهم الصليبيون يتراجعون والقتل والأسر يعملان في فرسانهم حتى بقي ملك بيت المقدس وحوله ١٥٠ من الفرسان ، فتساقطوا على الأرض لا يستطيعون حراكًا من الإنهاك والعطش والخوف . . وأسر ملك بيت المقدس، وأرناط

موقد شرارة هذه الحرب ، وأقيمت للسلطان صلاح الدين خيمة اجتمع فيها بذوي الرأي من أتباعه ومستشاريه ، فسجد الجميع لله شكرًا على ما أنالهم من نصره ، ثم أمر بإحضار الملك " جاي لوزجنان " وصاحب الكرك " أرناط " فأجلسهما بداخل خيمته ، وقد أخذ العطش من الملك كل مأخذ ، فطلب ماء فأحضر له ماء مثلوجًا ، فشربه إلا قليلًا منه ثم ناوله صاحب الكرك، فقال السلطان حينئذ : " إنا لم نعطه هذا الماء حتى يكون آمنًا على نفسه " ثم قام وأنَّب صاحب الكرك على سوء صنعه مع قافلة المسلمين ، وتطاوله على مقام النبوة، ثم ضرب عنقه بيده تنفيذاً لوعده وبرًّا بيمينه ، وعند ذلك رُعب الملك ، فطيب السلطان خاطره ، وهدَّأ من روعه وقال له : " لم تَجْر عادة الملوك أن يقتلوا الملوك ، وأما هذا فإنه تجاوز حدَّه فجرى عليه ما جرى " . . ثم أمر به فأرسل إلى دمشق هو وبقية قومه بكل حفاوة وإكرام .

انتهت معركة حطين ، وكان النصر فيها حاسمًا لصلاح الدين ، فلقد هُزم فيها الإفرنج الغاصبون هزيمة منكرة . . لقد خاض جيش الإسلام المعركة وهو أحسن ما يكون نظامًا وأقوى ما يكون عدَّة ، وأمهر ما يكون قيادة . . ولقد كان اختيار أرض المعركة موفقًا من الناحية العسكرية والحربية . . لذا كانت هذه الموقعة ضربة قاضية على فلول الإفرنج الصليبيين .

وبعد الانتصار الكبير الذي أحرزه صلاح الدين في حطين توجه بقواته إلى ميناء (عكا) ، فاستسلم من فيها بأمان ودخلها صلاح الدين في جمادى الأولى سنة ٥٨٣ هـ ، وانتقل الصليبيون منها إلى مدينة (صور) ، ثم وقع احتلال المدن والحصون التي حول عكا مثل (تبنين – صيدا – جبيل – بيروت) ، وبعد ذلكساير الساحل ، وحاصر (عسقلان) مدة أربعة عشر يومًا ، وانتهى الأمر باستسلامها، وبذلك نصب صلاح الدين حصارًا على بيت المقدس ، وحال بينها وبين الإمدادات الصليبية التي كانت ترد إليها من الساحل ، وتوجه إلى بيت المقدس بعد استلام (الرملة – الداروم – غزة – بيت لحم – النطرون) وفي أثناء توجهه إلى بيت المقدس أرسل إليه أحد المسلمين المأسورين في القدس قصيدة على لسان المسجد الأقصى يخاطب صلاح الدين :

يا أيها الملك الذي لمعالم الصلبان نكَّس

جاءت إليك ظلامة تسعى من البيت المقدَّس

كل المساجد طُهِّرَتْ وأنا على شرفي منجس

أراد السلطان ألا يتعرض لبيت المقدس بسوء ، ولا يمسه بأذى ، واختار دخول مدينة القدس صلحًا دون أن يسلط عليها من قوة جيشه الهائلة ما يهدم أبنيتها ، وينتهك حرمة مقدساتها ، وكأنه أراد أن يعيد سيرة الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه في فتحها مرة ثانية ، فأوفد الرسل إلى أهلها يطلب منهم التسليم على شروطٍ وضَعهَا قائلًا لهم : " إني على اعتقاد تام بأن القدس هي بيت الله المقدس كما تعتقدون ، وليس في عزمي أن أتعرض لبيت الله بأذى الحصار أو ضرر الهجوم " ، بيدَ أن الفرنج أبوا عليه ماأراد من غير أناة ولا نظر إلى العواقب ، وعلى إثر ذلك صمم السلطان صلاح الدين أن يستولي على المدينة بطريق الحرب والمقاومة . . ولم يمض أسبوع واحد من المقاومة الصلاحية حتى استسلمت القدس ، ورضي الفرنج بالصلح ، وتم الاتفاق على: " أن يسمح لهم بالخروج في مدة أربعين يومًا ، يدفع الرجل منهم عشرة دنانير ، والمرأة خمسة، والولد اثنين ، ومن لم يستطع ذلك فهو أسير " .

وقد نظم جبير قصيدة يمدح بها السلطان صلاح الدين بعد فتح بيت المقدس يقول فيها :

فضيلة فتح كان ثاني خليفة من القوم مبديها وأنت معيدها

بدأ السكان يجمعون متاعهم ويخرجون من حيث أمرهم السلطان ، حيث أقام العمال والموظفين لتسلم الفدية منهم وهم مفارقون ، وكان أول يوم بدأوا بالخروج فيه يوم الجمعة ٢٧ رجب ٥٨٣ هـ يوم الإسراء ، فصدقت نبوءة محيي الدين بن الزكي قاضي دمشق حين قال مخاطبًا للسلطان صلاح الدين :

وفتحكم حلبًا بالسيف في صفر مبشر بفتوح القدس في رجب

وقد أحضره السلطان ليكون خطيب القدس في يوم الجمعة الأكبر في المسجد الأقصى بعد أن انقطعت فيه الصلاة هذا الزمن كله منذ احتلال الفرنج له ، وقد كانت صلاة الجمعة يومًا مشهودًا وصلاة مباركة ميمونة لكثرة من حضر للصلاة ، ولعظم الفرحة التي غمرت قلوب المسلمين .

وإليكم الخطبة بحذافيرها كما جاءت في كتاب الروضتين الجزء الثاني :

وكان أول خطيب في المسجد هو القاضي محيي الدين بن زكي الدين ، ومما قاله هذا الخطيب بعد مقدمات الخطبة : " أيها الناس أبشروا برضوان اللّه الذي هو الغاية القصوى والدرجة العليا ، لما يسره اللّه على أيديكم من استرداد هذه الضالة وردَّها إلى مقرها من الإسلام بعد ابتذالها في أيدي المشركين قريبًا من مائة عام ، وتطهير هذا البيت الذي أذن اللّه أن يرفع وأن يذكر فيه اسمه ، وإماطة الشرك عن طرقه بعد أن امتد عليها رواقه ، واستعمر فيها رسمه ، ورفع قواعده بالتوحيد فإنه بني عليه ، وبالتقوى فإنه أسس على التقوى من خلفه ومن بين يديه ، فهو موطن أبيكم إبراهيم ، ومعراج نبيكم محمد عليه الصلاة والسلام ، وقبلتكم التي تصلون إليها في ابتداء الإسلام . وهو مقر الأنبياء ، ومقصد الأولياء ، ومقر الرسل ، ومهبط الوحي ، ومنزل تنزل الأمر والنهي ، وهو في أرض المحشر وصعيد المنشر ، وهو في الأرض المقدسة التي ذكرها اللّه في كتابه المبين ، وهو المسجد الذي صلى فيه رسول اللّه ﷺ بالملائكة المقربين ، وهو البلد الذي بعث اللّه إليه عبده ورسوله وكلمته التي ألقاها إلى مريم وروحه ، عيسى الذي شرفه اللّه برسالته ، وكرمه بنبوته ولم يزحزحه عن رتبة عبوديته، فقال اللّه تعالى : ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْداً لِّلّهِ ﴾ وقال : ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَآلُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ وهو أول القبلتين ، وثاني المسجدين ، وثالث الحرمين ، لاتشد الرحال بعد المسجدين إلا إليه ، ولا تعقد الخناصر بعد الموطنين إلا عليه ، ولولا أنكم ممن اختار اللّه من عباده ، واصطفاه من سكان بلاده لما خصكم بهذه الفضيلة التي لا يجاريكم فيها مجار ، ولا يباريكم في شرفها مبار ، فطوبى لكم من جيش ظهرت على أيديكم المعجزات النبوية ، والوقعات البدرية، والعزمات الصديقية ، والفتوحات العمرية ، والجيوش العثمانية ، والفتكات العلوية . جددتم للإسلام أيام القادسية ، والوقعات اليرموكية ، والمنازلات الخيبرية ، والهجمات الخالدية ، فجازاكم اللّه عن نبيكم أفضل الجزاء ، وشكر لكم ما بذلتموه من مهجكم في مقارعة الأعداء ، وتقبل منكم ما تقربتم به إليه من مهراق الدماء ، وأثابكم الجنة فهي دار

السعداء ، فاقدروا – رحمكم الله – هذه النعمة حق قدرها ، وقوموا إلى الله بواجب شكرها ، فله النعمة بتخصيصكم بهذه النعمة وترشيحكم لهذه الخدمة . . " إلى آخر ما جاء في الخطبة .

وبعد أن تم هذا الفتح العظيم توافد إلى السلطان الشعراء والعلماء والكتّاب والمؤرخون ينثرون أمامه من بلاغة الشعر وحكم المقال ما قد ملأ الكتب الطوال ، وإليك شيئًا مما قاله الشاعر العالم أبو الحسن ابن علي الجويني من قصيدة طويلة :

جند السماء لهذا الملكِ أعوان ... من شك فيهم فهذا الفتح برهان

هذه الفتوح فتوح الأنبياء وما ... لها سوى الشكر بالأفعال أثمان

أضحت ملوك الفرنج الصَّيدُ في يده ... صيْدًا وما ضعُفُوا يومًا وما هانوا

تسعون عامًا بلاد الله تصرخ والإس ... لام أنصاره صمٌّ وعميانُ

فالآن لَبَّى صلاح الدين دعوتهم ... بأمر من هو للمعوان معوان

إذا طوى الله ديوان العباد فما ... يُطوى لأجر صلاح الدين ديوان

وقال محمد بن أسعد بن علي بن معمر الحلبي المعروف بالجواني نقيب الأشراف بالديار المصرية من قصيدة :

أترى منامًا ما بعيني أبصر ... القدس تفتح والفرنجة تُكسَرُ

ومليكهم في القيد مصفود ولم ... يُرَ قبل ذلك لهم مليك يؤسر

فُتِحَ الشآم وطُهِّر القدسُ الذي ... هو في القيامة للأنام المحشر

يا يوسف الصدّيق أنت لفتحها ... فاروقُها عمرُ الإمامُ الأطهرُ

ولأنت عثمان الشريعة بعده ... ولأنت في نصر النبوة حَيدَر

٣ – سياسة صلاح الدين في معاملته للصليبيين :

كنا قد أشرنا في البحث السابق أن من بنود الصلح التي تمت بين الفرنج وصلاح الدين : " أن يسمح لهم بالخروج في مدة أربعين يومًا يدفع عن الرجل منهم عشرة دنانير، والمرأة خمسة ، والولد اثنان ،

ومن لم يستطع ذلك فهو أسير " ، غير أن السلطان صلاح الدين قد تجاوز بند المعاهدة وعامل الصليبيين معاملة عطف ورحمة وإحسان ، ليعطي للبغاة المعتدين ، والملوك المستبدين الظالمين والصليبية الحاقدة على الإسلام والمسلمين النموذج الطيب والقدوة الصالحة في السماحة والعدل والعفو عند المقدرة . . ليعرف أولئك جميعًا أن الإسلام دين الرحمة والإنسانية ، لم يظهر ليشهر سيفًا على مغلوب ، أو ينتقم من مستأمن ، أو يريق الدم البشري ظلمًا وعدوانًا ، وإليكم ما فعله صلاح الدين بأعدائه بعد أن أمكنه الله منهم .

رأى السلطان أن عددًا كبيرًا من الإفرنج يحمل على ظهره والديه الضعيفين ، أو أقاربه المرضى ، فأثر فيه هذا المنظر أشد التأثير ، وهاله الأمر كثيرًا ، ولم يطق صبرًا على رؤيته ، فأمر بالمال فأعطي لهم ، وبالدواب فوزعت عليهم ، لتحمل أثقالهم إلى بلد لم يكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس .

ولقد كانت شفقته بالنساء أكبر ، وعطفه عليهنَّ أعظم ، فقد كان بالقدس إذ ذاك إحدى نساء ملك من ملوك الروم ، وقد ترهبت ، وأقامت تتعبد وتتقرب إلى الله والتف حولها خلق كبير من الخدم والأتباع ، وكانت ذات مال كبير ، فأمَّنها السلطان على نفسها ومالها وأتباعها .

ولما استأذنته الملكة " سيبيل " في الرحيل هي وأتباعها ، أظهر لها من اللطف والتأسف على حالها ما أنطق الألسنة بالشكر له والثناء عليه ، خاطبها بكل حنو ورحمة وسيَّرها إلى زوجها السجين بقلعة " نابلس " وسمح لها بالمكوث فيها عنده، وقد تبعها في خروجها عدد كثير من النساء الباكيات الحاملات أطفالهن بين أذرعهن، ولما اقترين من السلطان تقدمن إليه وخاطبنه :

" أيها السلطان ! أترانا الآن راحلات عن هذه الديار ، ونحن بين زوج أو أم أو ابنة لأولئك الجند الذين لا يزالون في أسرك ، ونحن الآن نغادر هذه الديار إلى الأبد ، وهؤلاء الجند الذين نتركهم عدتنا في حياتنا ، وسلاحنا في أيامنا ، فإذا ما فقدناهم فقدنا الحياة ، أما إذا وهبتهم لنا فقد وهبت لنا النعيم، وخففت بذلك آلامنا ، وأزحت بؤسنا، وأبعدت عنا شقاءنا ، فإنا لا نكون على ظهر هذه الدنيا من غير مساعد أو عائل " .

تأثر السلطان بما سمع ، وما رأى من بكائهن ، وأمر بإعطاء الأمهات أبناءهن ، والزوجات بعولتهن ، والبنات آباءهن ، وحلف ليعاملن من بقي في الأسر بكل إحسان ورحمة .

ويقول (استفين سن) : " إن السلطان قد سمح لعدد كبير بالرحيل من غير فدية " ويروي (استانلي لين بول) أن " أرنولد " يقول : " إن السلطان قد قضى يومًا من أول بزوغ الشمس إلى غروبها وهو فاتح الباب للعجزة والفقراء تخرج من غير أن تدفع الجزية " .

وقد أذن السلطان لرجال الدين والناس كافة أن يحملوا معهم ما شاءوا من المتاع والأموال ، فأخذوا معهم ما شاءوا دون أن يعترضهم في ذلك معترض ، تاركين ما لا قبل لهم بحمله ، فابتاعه المسلمون منهم .

واستأذن (الملك العادل) أخاه صلاح الدين بإعفاء سبعة آلف من الفقراء والمساكين من الفدية ، وأعفى السلطان صلاح الدين ما يقارب عشرة آلف .

هذه المعاملة الحسنة من السلطان صلاح الدين للإفرنج بعد انتصار حطين كانت تخالف ما كانوا هم عليه في معاملتهم السيئة لبعضهم بعضًا فضلًا عن معاملتهم الحاقدة للمسلمين في الحرب الصليبية الأولى .

وإليكم ما يرويه (الأمير علي) عن (مل) المؤرخ الإنكليزي : " ذهب عدد من المسيحيين الذين غادروا القدس إلى أنطاكية المسيحية ، فلم يكن نصيبهم من أميرها إلا أن أبى عليهم أن يضيفهم ، فطردهم ، فساروا على وجوههم في بلاد المسلمين ، فقوبلوا بكل ترحيب " .

ويقول الأمير علي أيضًا : " ولقد وصف (ميشود) حال أولئك الذين طردوا من القدس وما لاقوه من إخوانهم المسيحيين من عدم احترام الإنسانية ، فقد تضوَّر عدد منهم جوعًا في سوريا ، وهم على أشد ما يكونون من البؤس، وقد أغلقت طرابلس أبوابها في وجوههم – ثم قال ميشود – : وقد اضطرت إحدى السيدات أن تلقي بولدها في اليمِّ وهي تلعن أولئك المسيحيين الذين أبوا أن يضيفوها أو يؤوها " ، وقيل للسلطان صلاح الدين ، والبطرق خارج بأمواله وذخائره ، وكانت كثيرة جدًّا : لم يصرفها

في فداء الفقراء والمساكين ، بعد أن وصف – ستانلي – البطرك بأنه كان من غير ضمير ولا وجدان ، قيل للسلطان : " لِمَ لا تصادر هذا فيما يحمل ، وتستعمله فيما تُقَوّي به أمر المسلمين ؟ " فقال لهم السلطان : " لا آخذ منه غير العشرة دنانير ، ولا أغدر به " وفي ذلك يقول (ستانلي لين بول) : "وقد وصل الأمر إلى أن سلطاناً مسلمًا يلقي على راهب مسيحي درسًا في معنى البرّ والإحسان " .

أما معاملتهم الحاقدة على الإسلام والمسلمين في الحرب الصليبية الأولى فكنا أشرنا في الفصل السابق عن المجازر الوحشية التي ارتكبوها ، وآلاف النفوس البشرية التي أزهقوها ، وحمامات من الدم الفوار التي أراقوها ، فالتاريخ لا ينسى ما اقترفته أيديهم الآثمة من بغي وغدر وحقد وإجرام . . عندما وطئت أقدامها أرض القدس سنة ٤٩٢ هـ – ١٠٩٩ م ، وإليكم ما قاله (ميشود) عند دخولهم القدس كما جاء في كتاب "الأمير علي " نقلًا عن (مل) المؤرخ الإنكليزي : "كان المسلمون يُقتلون في الشوارع والبيوت ، ولم يكن للقدس من ملجأ يلجأ إليه من تنائج النصر ، فقد فر بعض القوم من الذبح فألقى بنفسه من أعلى الأسوار وانزوى البعض الآخر في القصور والأبراج وحتى في المساجد ، غير أن هذا كله لم يخفهم عن أعين المسيحيين الذين كانوا يتبعونهم أينما ساروا " ثم يقول : " ولقد اندفع المشاة والفرسان وراء الهاربين ، فلم يسمع في وسط هذا الجمع المكتظ إلا نزعات الموت وسكراته ، ومشى أولئك المنتصرون فوق آكام من الجثث الهامدة وراء أولئك الذين يبحثون عن ملجأ أو مأوى " ، ثم يروي (الأمير علي) عن ميشود ما معناه : " أما أولئك الذين أبقاهم الفرنج أحياء أملًا في أموالهم فقد ذبحوا عن آخرهم بلا مبالاة ولا شفقة ، حتى اضطر المسلمون إلى أن يلقوا بأنفسهم من فوق المنازل وقد أحرق بعضهم وهم أحياء ، وسُحب آخرون من أخبيتهم إلى الساحات العمومية وقتلوا على جثث القتلى هناك ، وما كانت مياه عيون النساء ، ولا صياح الأطفال ، ولا منظر المكان الذي عفا فيه المسيح عن قاتليه لتسكن من ثورة أولئك المنتصرين " ثم أضاف (مل) قوله : " ولم يتحرك أي قلب حناناً ولا شفقة على أولئك الأبرياء ، ولم يتقدم إلى عمل البر والإحسان رجل واحد . نحو سبعين ألف نفس ذهبت ضحيتُه بلا ذنب " .

هل سمعتم في التاريخ سماحة أروع وأنبل من سماحة صلاح الدين ؟ وهل طرقت مسامعكم وحشيةٌ ظالمة أفظع وأكبر من وحشية الصليبيين ؟ ورحم الله من قال :

ملكنا فكان العدل منا سجية فلما ملكتم سال بالدم أبطح

وحلّلتمُ قتل الأسارى وطالما غدونا على الأسرى نمنُّ ونصفح

فحسبكمُ هذا التفاوتُ بيننا وكل إناء بالذي فيه ينضح

ويقول (فيليب حتي) في ذلك : " وكان الفرق جليًّا بين معاملة صلاح الدين للمدنيين من الفرنج ، ومعاملة الفرنج للمسلمين قبل ذلك بثمان وثمانين سنة " .

٤ – حصار عكا والحملة الصليبية الثالثة :

كما ذكرنا في البحث السابق أن الصليبيين خرجوا من بيت المقدس ومن عكا وغيرها من البلاد . . تحت حماية القوات الإسلامية إلى مدينة (صور) بعد أن تعهدوا بعدم الرجوع إلى الحرب ، وعدم إخفاء الذمة والعهد ، ولكن الصليبيين نقضوا عهدهم ، وأخلوا بوعودهم ، وقطعوا كل ذمة أعطوها للسلطان صلاح الدين .

فما أن اجتمعت الفلول الصليبية اللاجئة إلى مدينة (صور) حتى أغراها اجتماعها وكثرتها على نقض العهد الذي أعطته لصلاح الدين ، لهذا توجه الصليبيون إلى مدينة (عكا) ونصبوا عليها الحصار اعتمادًا على قوتهم المجتمعة ، وعلى الإمدادات التي ترد إليهم من أوربا ، وحصار عكا كان له دويٌّ في التاريخ نظرًا لطوله الزمني الذي استمر عامين ، ونظرًا لضروب الشجاعة والبسالة والإقدام التي أظهرها كل من المتحاربين ، سواء من المسلمين أو الصليبيين .

تحركت الجيوش الصليبية إلى عكا في ٨ رجب ٥٨٥ هـ – ١٨٩٠ م ، وما إن وصلوها حتى حاصروها برًّا وبحرًا ، ثم وصلت الجيوش الإسلامية ، وحاصرت القوات الصليبية من ناحية البر ، ونصب صلاح الدين خيمته على (تل كيسان) ، واستمرت المناوشات والمعارك ، وكان الأمر يشتد كل يوم وساعة ، فصلاح الدين بعث النفير إلى أطراف مملكته يحث المسلمين على التحرك والجهاد ،

والصليبيون تتوارد عليها الإمدادات من أوربا التي ضجت لنبأ استيلاء صلاح الدين على بيت المقدس .

وبينما كان الصليبيون يحاصرون مدينة (عكا) كانت ممالك أوربا تستعد لحرب صليبية ثالثة إثر الانتصارات الباهرة التي سجلها صلاح الدين ضد الإمارات الصليبية ، واسترجاعه لبيت المقدس ، وقد امتازت الحرب الصليبية الثالثة بأن كان على رأسها أعظم ملوك أوروبا في ذلك الزمان :

١) إمبراطور ألمانيا (فريدريك بربروس) .

٢) ملك فرنسا (فيليب أوغسطس) .

٣) ملك الإنكليز (ريتشارد قلب الأسد) .

أما مصير الحملة الألمانية : فإن الإمبراطور الألماني سار في جيش كبير يقارب مائة ألف محارب مخترقًا بلاد المجر في اتجاه القسطنطينية ، وأفزع هذا الجيش العرمرم إمبراطور بيزنطة (إسحاق لانج) ، فلم يجد الألمان من الإمبراطور البيزنطي مساعدة ولا استبشارًا . وبلغ الأمر بالإمبراطور البيزنطي أن أبلغ صلاح الدين بمجيء الألمان ، وأعلمه بأن سوف لا يمدهم بأية إعانة . وعبرت الجيوش الألمانية إلى آسيا الصغرى ، ولما وصلوا (أرمينية) وجدوا من الأرض خير مساعد ، إلا أن غرق الإمبراطور الألماني (بربروس) ، وموته بنهر (سالف) في جبال أرمينية جعل الجيش الألماني في تشتت واضطراب ورجع غالبه إلى ألمانيا أما بقيته فقد ركبوا السفن إلى (عكا وصور) بقيادة (فردريك دواسواب) ابن الإمبراطور الألماني السابق ، وحتى هذا الابن مات أثناء الطريق ، ولم يصل إلى عكا من الألمان إلا عدد قليل من هذا الجيش العرمرم ، الذي لو وصل تامًّا لكان له أثر كبير في النزاع بين الصليبيين وصلاح الدين .

أما الحملتان الفرنسية والإنكليزية فكانتا كما يلي :

التقى الإنكليز والفرنسيون في (صقلية) وأقاموا فيها مدة طويلة لخلاف وقع بينهم بينما الصليبيون في عكا ينتظرونهم بفارغ الصبر ، وأخيرًا بارح الفرنسيون صقلية ، وبعد عشرة أيام بارحها الإنكليز

واستبشر الصليبيون بوصول القوات الفرنسية إلى عكا لإضافتهم قوة أخرى تشد من أزرهم ، وتمكن من انتصارهم .

أما ملك الإنكليز – قلب الأسد – فقد ألقت عاصفة بأسطوله على جزيرة قبرص التي كانت تابعة للإمبراطورية البيزنطية فما كان من قلب الأسد إلا محاربة البيزنطيين والاستيلاء على قبرص والاستقرار بها مدة ، ثم أبحر إلى عكا بعد أن استنجد به ملك بيت المقدس الذي أطلقه صلاح الدين من الأسر .

ماذا تم في مقاومة عكا بعد أن أحاط بها العدو من كل جانب ؟

لا شك أن الصليبيين ازدادوا قوة على قوتهم بوصول قلب الأسد ملك الإنكليز ، ورغم المحاولات العديدة التي بذلها البطل صلاح الدين ورجاله لإنقاذ من بعكا من المسلمين وفك الحصار ، فإن المحاولات لم تُجْدِ نفعًا ، وأخيرًا اضطر المحصورون إلى الاستسلام بعد أن أيقنوا باستحالة المقاومة وفك الحصار عنهم ، وفي ظهر يوم الجمعة السابع عشر من جمادى الثانية سنة ٥٨٧ هـ – ١١٩١ م بينما كان السلطان صلاح الدين يستشير خاصته فيما ورد عليه من عزم المحصورين على المصالحة والاستسلام ، ارتفعت الأعلام الصليبية على أسوار مدينة عكا معلنة احتلالها واستسلامها ، ففوجئ المسلمون وارتاعوا ، واستبشر الصليبيون وصاحوا . وبعد استسلام عكا عادت الأعمال الوحشية إلى حالتها الأولى ، فنكل الصليبيون بأهالي عكا المسلمين وأشبعوهم ذبحًا وقتلًا ، وكأنهم لم ينظروا إلى المعاملة الحسنة التي عاملهم بها صلاح الدين ، ولم يرقبوا في ذلك إلاًّ ولا ذمة ، يقول استانلي : " وقام ملك الإنكليز (ريتشارد قلب الأسد) يوم ٢٣ رجب سنة ٥٨٩ هـ – ١٦ أغسطس سنة ١١٩١م فقتل ٢٧٠٠ مسلمًا أمام معسكر المسلمين والفرنج ، من غير أن يتحرك قلبه من شدة بشاعة هذه المجزرة العظيمة ، فسالت الدماء بحورًا ، وسبحت فيها الأجساد سبحًا "، وإن أردت – أيها القارئ – أن تقف على بشاعة هذا المنظر فاقرأ ما يقوله "استانلي " عند الاستيلاء على عكا : " ولم يُبق الإفرنج إلا على من كان ذا مال يطمعون فيه، ولم تذهب عكا بلا ثمن فقد كلفت المسلمين ٦٠ ألف نفس " . أما

الفرنج فإنهم عندما استولوا على عكا انغمسوا كعادتهم في المسرات والملذات، فقال ميشود : " ولقد تمتع الإفرنج المنتصرون واستراحوا راحة في عكا ما سبق لهم بها مثيل منذ جاءوا إلى سوريا ، فمسرات السلام وكثرة الطعام والنساء اللائي حضرن من الجزر المجاورة القريبة ، كل هذه أنستهم وقتًا ما مهمتهم التي جاءوا من أجلها " .

فكان من المنتظر بعد انتصار الإفرنج في عكا ، وبعد أن قامت أوربا بأسرها والعالم اللاتيني كله في آسيا وغيرها تناوئ قوات السلطان صلاح الدين ، كان من المنتظر بعد هذا كله أن ينال الفرنج بجموعهم الكبيرة ، وقوتهم الهائلة من السلطان صلاح الدين شيئًا كثيرًا فيتمكنوا من إيقاع الهزيمة بالمسلمين إلى الحد الأعظم ، ويستردوا كل ما فقدوا من البلاد ، لكنهم لم يستولوا بعد حرب دامت سنتين إلا على مدينة واحدة، وبقي جيش صلاح الدين في قوته ومنعته لم يذهب منه سوى القليل .

ومن الأمور التي ساعدت على توقف الجيش الصليبي عن الفتح والنصر حدة الخلاف التي وقعت بين ملك فرنسا وملك الإنكليز لما كانا في صقلية ، وكان الخلاف أشد ما يكون بين ملك بيت المقدس الطريد ، وبين المركيز (كنراد مونت) صاحب مدينة صور، وقد كان ملك الإنكليز يميل إلى ملك بيت المقدس ، بينما ملك فرنسا يميل إلى المركيز صاحب صور الطامع في تاج مملكة بيت المقدس ، وحالما تم انتصار الصليبيين في عكا عادت الخلافات إلى الظهور ، وانتهت على اتفاق يتضمن استمرار ملك بيت المقدس حاملًا للتاج مدة حياته ، وبعد موته يتولاه المركيز (كنراد) ، وبادر الملك الفرنسي بالرحيل إلى بلاده ، أما (ريتشارد قلب الأسد) ملك الإنكليز فقد أخذته العزَّة بالإثم وظن أنه بقتاله سيسترد البلاد التي فتحها صلاح الدين، وجرت بينه وبين صلاح الدين معارك كثيرة ، وحروب طاحنة كان النصر فيها سجالًا ، تارة لصالح صلاح الدين، وأخرى لصالح قلب الأسد ، ومن المعارك الكبيرة التي وقعت وكانت لصالح الصليبيين معركة (أرسوف) ، تغلب فيها الصليبيون على القوات الإسلامية واعتبروها أخذًا بثأر معركة حطين .

على أية حال انتهت الحرب ؟

استمرت المعارك بين صلاح الدين والصليبيين ، وحاولوا مرات الاقتراب من بيت المقدس حتى أصبحوا مرة على بعد فرسخين منها ، وكان قلب الأسد لا يقوى على محاصرة بيت المقدس مخافة أن يكون الحصار قاضيًا عليه ؛ لأن حماة بيت المقدس في هذه الصليبية لم يكونوا كحماتها في الصليبية الأولى ، وتكاد الوقائع الحربية تكون سجالاً بين الصليبيين وصلاح الدين : الصليبيون لم يستطيعوا التوغل داخل البلاد الشامية وإنقاذ بيت المقدس ، وصلاح الدين لم تسنح له الظروف في زحزحة الصليبيين عن الساحل وإلقائهم في البحر والانتصار عليهم ، ولهذا كانت الدعوة إلى المهادنة والصلح تجد رغبة عند الجانبين ، وإنما كان يعرقلها اشتراط الشروط وعدم التنازل .

وأخيرًا ركن الطرفان إلى الصلح والمهادنة ، فتم ذلك في شعبان في الرملة سنة ٥٨٨ هـ – ١١٩٢ م وكان أهم ما في هذا الصلح :

١ – أن يستقر الصليبيون في الشريط الساحلي الممتد من صور إلى حيفا .

٢ – السماح للنصارى بزيارة بيت المقدس دون ضريبة يدفعونها .

٣ – أن تقع هدنة بين الطرفين لمدة ثلاث سنوات وثمانية أشهر .

والشريط الساحلي الذي استقر فيه الفرنج هو الذي اعتبر امتدادًا لمملكة بيت المقدس السابقة ، وأصبحت مدينة عكا عاصمة لمملكة بيت المقدس الجديدة .

وبعد الهدنة بقليل غادر قلب الأسد السواحل الشامية قاصدًا بلاده بعد أن اكتسب شهرة عظيمة ، وأصبح ألمع شخصية في الحرب الصليبية الثالثة .

وهكذا انتهت الحملة الصليبية الثالثة بعد حرب دامت خمس سنوات ذهبت فيها أرواح الكثيرين ، وخربت بلاد بأسرها ، وفقدت ألمانيا إمبراطورًا من أعظم أباطرتها ، كما أضاعت فرنسا وإنكلترا نخبة من زهرة شبابها وقوادها .

كل هذا دون أن ينال الفرنج سوى عكا ، فلم تكافئ نتيجة هذه الحرب بأي شكل من الأشكال ما تكبدته أوربا ، وفقدته في سبيلها .

قامت هذه الحرب ، وما كان للمسلمين إذ ذاك قيد شبر من أرض فلسطين قبل صلاح الدين ، أما بعد موقعة حطين ، وصلح الرملة ، فقد أصبحت فلسطين كلها مسلمة عدا الجزء الضيق من صور إلى عكا ، وصار بذلك صلاح الدين من القوة والمنعة بحيث لا يهتز لأي قوة أخرى ، فخضع لسلطانه أمراء تلك الجهات كلها ، وطرد الفرنج من البلاد ، واسترد بيت المقدس ، وأعاد للإسلام مجده التليد وسلطانه العظيم ، وكوَّن مملكة كبيرة تشمل شمال العراق (الكردستان) والشام ومصر وفلسطين وبرقة في فترة قصيرة من الزمن تعد قصيرة بالنسبة لعمر التاريخ .

***

الفصل الثامن

خاتمة صلاح الدين

١ – مما دلت عليه الشواهد التاريخية أن صلاح الدين لم يقدم على مصالحة الصليبيين مختارًا ، وإنما الظروف السيئة هي التي ألجأته إلى الصلح مضطرًا بعد أن رأى (سآمة العسكر وتظاهرهم بالمخالفة) ، ولو سارت الأمور لصلاح الدين على حسب ما يهوى لاستمر الجهاد لإعلاء كلمة اللّه حتى تتطهر بلاد الشام وأرض فلسطين من الشراذم الباغية والغزاة المعتدين ، وكان أخشى ما يحذر منه صلاح الدين هو أن الصليبيين في بعض مراكزهم ببلاد الشام يعيثون فيها فسادًا ، ويتّحدون ويجتمعون ثم ينقضُّون على العالم الإسلامي لتقويضه والسيطرة عليه وإحداث البلبلة فيه كما كانوا يصنعون .

ويؤكد القاضي ابن شداد في كتابه " النوادر السلطانية " هذا المعنى فيقسم قائلًا : "واللّه العظيم ! إن الصلح لم يكن من إيثاره ، فإنه قال لي في محاوراته في الصلح : أخاف أن أصالح ، وما أدري أي شيء يكون مني فيقوى به هذا العدو ، وقد بقيت لهم هذه البلاد ، فيخرجوا لاسترداد بقية بلادهم ونرى كل واحد من هؤلاء الجماعة قد قعد في قلعته " .

وعلى كل حال إن صلح (الرملة) قوبل بالارتياح التام من المسلمين والصليبيي ن سواء، بعد أن ملوا جميعًا تلك الحروب الطويلة الطاحنة التي كانت تأتي على الأخضر واليابس ، فتجعله خرابًا يبابًا ، والتي لم تنته إلى نتيجة حاسمة يرضى عنها الطرفان ، بل أصبح الناس يتوقون إلى فترة من الهدوء والاستقرار يباشرون فيها تقدمهم الحضاري ونشاطهم العمراني ، ويصوِّر لنا (المقريزي) في كتابه " السلوك " عظم الفرحة التي عمت المسلمين والصليبيين سواء عند إعلان الصلح فيقول : "كان يوم الصلح يومًا مشهودًا ، عم فيه الطائفتين الفرح والسرور لما نالهم من طول الحرب " .

ومهما يكن من أمر ، فإن صلاح الدين أعلن " أن الصلح قد انتظم ، فمن شاء من بلادهم يدخل بلادنا فليفعل ، ومن شاء من بلادنا يدخل بلادهم فليفعل " ، وبعد هذا الإعلان السلمي من صلاح الدين أخذ النشاط يسير سيرًا حسنًا في طريق التجارة ، وازدهار الحياة الاقتصادية ، وذهب جماعة من المسلمين إلى يافا في طلب التجارة وابتغاء الرزق ، وعادت الحياة الطبيعية إلى فلسطين ، وبات الناس ينعمون بالأمن والاستقرار وفتح السلطان صلاح الدين الباب على مصراعيه لزيارة بيت المقدس من قبل الصليبيين ، ودخل من النصارى للزيارة مالا يتصوره عقل ، ولا يحصيه رقيب ، ولما علم " ريتشارد قلب الأسد "كثرة من يزور بيت المقدس من الحجاج النصارى خشي أن يغضب صلاح الدين لذلك " وسيَّر إلى السلطان يسأله منع الزوار، واقترح أن لايؤذن لهم إلا بعد إحضار علامة من جانبه أو كتاب منه" ولكن صلاح الدين أبى ذلك ، ورد عليه بأن أولئك الزوار " قد وصلوا من ذلك البعد لزيارة هذا المكان الشريف فلا أستحل منعهم " بل إن صلاح الدين بالغ في إكرام من يرد إلى بيت المقدس من الزوار النصارى " وشرع في مد الطعام لهم ومباسطتهم ومحادثتهم " .

وبهذا التسامح النبيل ، والأخلاق الرضية لقن صلاح الدين ملوك الغرب والشرق دروسًا في التسامح والعفو ومكارم الأخلاق . . وذلك قبل أن يركب " قلب الأسد " البحر قافلًا إلى بلاده ، رحم الله صلاح الدين وأعلى مقامه في عليين .

٢ – وبعد أن تم توقيع صلح الرملة توجه صلاح الدين إلى بيت المقدس ، متفقدًا أحواله ، ومنظمًا أموره ، وأصدر أوامره في فتح المدارس ، وإنشاء المستشفيات ، وتنظيم الإدارات . . ثم أعلن رغبته في أداء فريضة الحج ، فخاف الأمراء غدر الفرنج به إذا علموا ذلك ، فألحوا عليه بالعدول ، فأجابهم إلى ما طلبوا ، ورحل بعد قليل إلى جهات الساحل ليتفقد أحوال الحصون والمعاقل ، وليصلح ما يحتاج منها إلى إصلاح ، فسار من القدس إلى نابلس فبيسان فطبرية ثم إلى بيروت ، ثم إلى دمشق فوصلها يوم ٢٦ شوال ، ففرح الناس بقدومه ، وأغلقوا حوانيتم لاستقباله ، والاحتفاء به . ولا عجب إذ هم فعلوا ذلك ، لما للسلطان عليهم من فضل ، في حفظ البلاد ، ونشر لواء العدل ، وإخماد الفتن والثورات . .

وما إن وصل صلاح الدين إلى دمشق حتى شرع في تنظيم شؤون البلاد، وتوزيع الأموال على المستحقين ، وتسريح الأجناد إلى بلادهم وجلس ينظر في شكاوي الأهالي " لينشر جناح عدله ، ويهطل سحاب إنعامه وفضله " وقد طاب له المقام في دمشق ، ومارس فيها رياضة الصيد هو وأخوه العادل وأولاده " ويتفرجون في أرض دمشق وموطن الظباء ، وكأنه وجد راحة مما كان فيه من ملازمة التعب ، وسهر الليل ، ونصب النهار ، ويذكر القاضي ابن شداد أن بهجة دمشق أنست صلاح الدين ما كان اعتزمه من قصد الديار المصرية ، بل إنه أرسل إلى ابن شداد بالقدس يستدعيه ؛ ليكون إلى جواره في دمشق ، استدعاه صلاح الدين على انفراد يقول ابن شداد : "فدخلت عليه ، فقام ولقيني لقاء ما رأيت أشد من بشره بي فيه ، ولقد ضمني إليه ، ودمعت عينه رحمه الله " .

وما زال على هذه الحال حتى خرج يوم ١٤ صفر سنة ٥٨٩ هـ لملاقاة الحجاج العائدين من مكة ، وكان لقاء رهيبًا تأثر منه السلطان وبكى ، وكم تمنى أن يكون معهم ليفوز فوزاً عظيمًا ! وكم تمنى أن يؤدي الفريضة ، ولكن الرياح تجري بما لا تشتهي السفن !

٣ – وما إن رجع صلاح الدين من استقبال الحجيج حتى غشيته " حمى صفراوية " ، وأخذ المرض يشتد به ويتزايد حتى أصبح في حالة خطيرة أيأست علاج الأطباء له ، والمهتمين به ، وما لبث أن انتشر خبر مرض صلاح الدين في دمشق ، فاضطرب الناس وخافوا " وغشيتهم من الكآبة والحزن ما لم تمكن حكايته " .

وقد تكاثرت جموع الناس حول قلعة دمشق بين مستفسر يريد الاطمئنان ، وبين داع له بالشفاء ، ولم يؤذن لأحد بالدخول عليه سوى القاضي ابن شداد ، والقاضي الفاضل، فكانا يلازمانه طيلة أيام مرضه .

وفي اليوم السادس لمرضه كان يجلس عنده القاضي ابن شداد ، فأحضروا له ماء فاترًا ليشربه عقب الدواء ، ولكن صلاح الدين شكا من شدة حرارة الماء ، ولما أحضروا له ماء ثانيًا شكا صلاح الدين من برده ، وقال: " سبحان الله ، ألا يمكن أحدًا تعديل الماء ! " وكان ذلك دون أن يغضب أو

يصخب ، يقول ابن شداد : " فخرجت أنا والقاضي الفاضل من عنده وقد اشتد بنا البكاء ، والقاضي الفاضل يقول لي : أبصر هذه الأخلاق التي أشرف المسلمون على مفارقتها ! والله لو أن حصل هذا لبعض الناس لضرب بالقدح رأس من أحضره " .

ويقول القاضي ابن شداد : " ولما كان العاشر من مرضه حقن دفعتين وحصل من الحقن راحة ، وحصل بعض خفة ، وتناول من ماء الشعير مقدارًا صالحًا ، وفرح الناس فرحًا شديدًا . . وأخبرنا في هذا اليوم بأن العرق قد أخذ في ساقيه فشكرنا الله تعالى على ذلك . . ثم ذكر لنا أن العرق سابغ (أي عم جميع جسمه) فانصرفنا طيبة قلوبنا ، ثم أصبحنا في الحادي عشر من مرضه وهو السادس والعشرون من صفر فحضرنا بالباب وسألنا عن الأحوال فأخبرنا بأن العرق أفرط حتى نفذ بالفراش ثم في الحصير ، وتأثرت به الأرض . . وحارت في القوة الأطباء " .

ولما رأى الملك الأفضل (نور الدين علي) أكبر أبناء صلاح الدين ما حلَّ بوالده وألا رجاء في شفائه ، وأن الحالة التي يعانيها هي سكرات الموت ، استحلف الناس على أن يكون الأمر لوالده مدة حياته ، وله بعد وفاته .

ونسخة اليمين المحلوف بها مضمونها –كما ذكرها القاضي ابن شداد في كتاب النوادر السلطانية – ما يلي : " إني من وقتي هذا صفيت نيتي ، وأخلصت طويتي للملك الناصر مدة حياته ، وإني لا أزال باذلًا جهدي في الذبِّ عن دولته بنفسي ومالي، وسيفي ورجالي ممتثلًا أمره ، واقفًا عند مراضيه ، ثم من بعده لولده الأفضل (نور الدين علي) وورثه . ووالله إني في طاعته ، وأذب عن دولته وبلاده بنفسي ومالي وسيفي ورجالي ، وأمتثل أمره ونهيه ، وباطني وظاهري في ذلك سواء ، والله على ما أقول وكيل " .

٤ – وفي ليلة الأربعاء السابع والعشرين من صفر سنة ٥٨٩ هـ ، وهي الليلة الثانية عشرة من مرضه ، ساءت حالة صلاح الدين ، وأصبح في حالة غيبوبة طويلة لم يفق منها إلا نادرًا ، فاستحضر أحد المقرئين ليقرأ عنده القرآن الكريم حتى إذا وصل المقرئ إلى قوله تعالى : ﴿ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ

تَوَكَّلْتُ ﴾ تبسم وجه صلاح الدين وتهلّل ، وأسلم الروح لبارئها ، وكان ذلك بعد صلاة الصبح يوم السابع والعشرين من صفر تسع وثمانين وخمسمائة .

٥ – لقد وقع نبأ موت صلاح الدين على المسلمين جميعًا وقع الصاعقة للصدمة الفادحة ، والمصاب الجلل ، ولنترك المجال للقاضي ابن شداد – وهو شاهد عيان – يصف لنا حالة الناس وغمرتهم الشديدة ؛ إذ يقول : " وكان يومًا لم يصب الإسلام والمسلمون بمثله ، منذ أن فقدوا الخلفاء الراشدين ، وغشي القلعة والبلد والدنيا من الوحشة مالا يعلمه إلا اللّه تعالى ، وباللّه لقد كنت أسمع من بعض الناس أنهم يتمنون فداءه بنفوسهم ، وما سمعت هذا الحديث إلا بضرب من التجوز والترخص إلا في ذلك اليوم ، فإني علمت من نفسي ومن غيري أنه لو قبل الفداء لفُدي بالنفس . . وكان أولاده يخرجون مستغيثين إلى الناس فتكاد النفوس تزهق لهول منظرهم ، ودام الحال على ذلك إلى ما بعد صلاة الظهر . . وكان نزوله في حفرته – قدس اللّه روحه ونوَّر ضريحه – قريبًا من صلاة العصر ، ثم نزل في أثناء النهار ولده الملك الظافر ، وعزَّى الناس فيه ، وسكَّن قلوب الناس ، فما وجد قلب إلا حزين ، ولا عين إلا باكية إلا من شاء اللّه ، ثم رجع الناس إلى بيوتهم أقبح رجوع " .

٦ – وأخرج قريبًا من صلاة العصر في تابوت مسجى ببعض الثياب التي استحضرها القاضي الفاضل ، وعند مشاهدة الناس للتابوت انهمرت الدموع ، وعظم الضجيج حتى إنه خيل للسامع أن الدنيا تصيح صوتًا واحدًا .

ودفن رحمه الله حيث مات في قلعة دمشق ، وبعد ثلاث سنوات من موته، أَعَدَّ له ولده (الملك الفاضل) قبرًا بجوار الجامع الأموي مكان دار رجل صالح اشتراها منه ، ونقل رفاته إليه في يوم عاشوراء بمحفل رهيب ، وجلس للعزاء بالجامع الأموي ثلاثة أيام كاملة .

مات السلطان صلاح الدين ، وفي يوم وفاته فقدت الأمة الإسلامية رجلًا كان له في التاريخ ذكر ، وفي القلوب مكانة ، وفي النفوس احترام وإجلال ، وهيهات أن تلد الأمهات مثل صلاح الدين نبلًا وتضحية وإخلاصًا وجهادًا، أكرم اللّه نزله ، ونوّر ضريحه ، وأعلى مقامه في أعلى عليين .

٧ – وكان عمر صلاح الدين رحمه الله بعد أن فاضت روحه إلى بارئها السابعة والخمسين ، ولما مات لم يخلف في خزانته من الذهب والفضة إلا سبعة وأربعين درهمًا ناصرية ، ودينارًا واحدًا ، ولم يخلف ملكًا ولا عقارًا ، ولا بستانًا ولا مزرعة ، ولا شيئًا من الأملاك . .

٨ – وبعد وفاته رثاه الشعراء بنفائس الشعر ، وعددوا فيه تلك السَّماحة والمآثر الكريمة التي جعلته حبيبًا إلى القلوب ، أثيرًا لدى النفوس ، وقدوة للأجيال ، ورمزًا للدفاع عن مقدسات الإسلام ، واسترداد الوطن المغصوب ، فمن غرر هذه القصائد في رثائه قصيدة " العماد الأصبهاني " جاء فيها :

شملُ الهدى والملك عمَّ شتاته والدهر ساء وأقلعت حسناته

أين الذي كانت له طاعاتنا مبذولة ولربِّه طاعاته

بالله أين الناصر الملك الذي لله خالصة صفت نيَّاته

أين الذي ما زال سلطانًا لنا يُرجى نداه وتتقى سطواته

أين الذي شرف الزمان بفضله وسمت على الفضلاء تشريفاته

أين الذي عنت الفرنج لبأسه ذلًّا ومنها أدركت ثاراته

لذَّ المتاعب في الجهاد ولم تكن مُذ عاش قط لذاته لذَّاتُهُ

لا تحسبوه ممات شخص واحد فمماتُ كل العالمين مماتُه

في نصرة الإسلام يسهر دائمًا لتطول في روض الجنان سناتُه

مَلكٌ عن الإسلام كان محاميًا أبدًا إذا ما أسلمته حماتُه

مَن لليتامى والأرامل راحمٌ متعطف مفضوضة صدقاتُه

من للثغور وقد عداها حفظه من للجهاد ولم تعُد عاداتُه

ياوحشة الإسلام يوم تمكنتْ في كل قلب مؤمن روعاتُه

ما كان أسرع عصرهُ لما انقضى فكأنما سنواتُه ساعاتُه

فعلى صلاح الدين يوسف دائمًا رضوان رب العرش بل صلواتُه

الفصل التاسع

سر الانتصار على الصليبيين وأسبابه

سبق أن عرضنا أن النصر الأكبر الذي أحرزه صلاح الدين في حروبه مع الصليبيين هو معركة حطين الفاصلة ، فكان من نتيجة هذا الانتصار الخالد تحرير بيت المقدس من براثن الصليبية الحاقدة بعد أن عاثوا فيه بغيًا وفسادًا ما يقارب مائة عام ، ولقد سجل التاريخ هزيمتهم المنكرة بعد أن خلَّفوا وراءهم الآلاف من بني قومهم بين قتيل وأسير وجريح .

وإذا كان للنصر أسباب ومقدمات فلنبحث عن أهم هذه الأسباب والمقدمات التي حققت للبطل صلاح الدين نصره الخالد في معركة حطين المظفرة .

ويجب ألا يغرب عن البال أن الأسباب التي هيأت للبطل الظفر ، وأن المقدمات التي حققت للأمة الإسلامية النصر لم تكن من عنديات صلاح الدين ، ولم تكن من إبداعه وابتكاره ، وإنما هي متابعته المسيرة التي نهجها الرسول صلوات الله وسلامه عليه في بدر والأحزاب وفتح مكة . . وسيره على الدرب الذي سار فيه الصحابة الكرام في معارك القادسية واليرموك . . فمن البديهي أن ينتصر صلاح الدين ، ومن الطبيعي أن يمكنه الله من أعدائه لسلوكه المسلك الذي سلكوه ، والتزامه المنهج الذي نهجوه وصدق الله العظيم القائل :

﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ (الحج : ٤٠-٤١) والأمة الإسلامية – في كل زمان ومكان – حين تأخذ بهدي هذه الآية الكريمة ، وتعمل على تهيئة الأسباب للنصر ، وتسعى مخلصة في تحقيقها ، وتسهر جادة على تنفيذها فإن الله جلت حكمته سيحقق لها ما تنشدُه من عز ونصر ، وما تتمناه من مجد وسيادة ؛ لأنه القائل في كتابه العزيز :

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا منكُمْ وَعَملُوا الصَّالحَات لَيَسْتَخْلفَنَّهُم في الْأَرْض كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذينَ من قَبْلهمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دينَهُمُ الَّذي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْد خَوْفهمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَني لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلكَ فَأُوْلَئكَ هُمُ الْفَاسقُونَ ﴾ (النور : ٥٥) .

أما سر الانتصار وأسبابه فيعود إلى الأمور التالية :

١ - تقوى الله والاحتراس من المعاصي :

إن تقوى الله ، والخشية منه ، وحسن الظن به ، والالتجاء إليه واجتناب المحارم ، وتنفيذ الأوامر . . هي أول مقدمات النصر ، ومعالمه المبشرة ؛ لأن هذه المعاني الروحية، والقوى المعنوية إن تأصلت في الجيش المسلم المحارب جعلت هذا الجيش قوة هائلة لا تعرف الضعف والخور ، وطودًا راسخًا لاتزلزله العواصف الهوج ، ولا تنال منه حادثات الليالي ، والله سبحانه لن يتخلى عن هذا الجيش المؤمن الواثق به ، المعتمد عليه ، المنفّذ لأحكامه مهما كانت حراجة الموقف ، ومهما تألب العدو على أمة الإسلام وتآمر ، فإذا أعوزت الأمة الإسلامية المجاهدة المعونة المادية ، والأسباب الأرضية ، فإن الله تعالى سيمدها بمدد السماء ، ويقذف في قلوب أعدائها الرعب ، وينصرها من حيث لم تحتسب ؛ لأنه القائل في محكم كتابه : ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلآئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرَّعْبَ فَاضْرِبُواْ فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِقِ اللّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ (الأنفال : ١٢ ، ١٣) .

﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللّهُ إِلاَّ بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (الأنفال : ١٠) .

ومن الأمثلة التي نوردها في احتراس صلاح الدين من المعاصي وقمعه للفواحش والمنكرات موقفه الرائع في إبطاله مظاهر الخلاعة والمجون أيام تقلده الوزارة في مصر ، هذه المظاهر كانت متفشية في المجتمع المصري في عهد الفاطميين ، ولا سيما في المواسم والأعياد كعيد النيروز ، " إذ كانت المنكرات ظاهرة فيه ، والفواحش صريحة في يومه ، ويركب فيه أمير موسوم بأمير النيروز ، ومعه جمع كثير ، ويتسلط

على الناس في طلب رسم رَتّبه على بيوت الأكابر ، ويقنع بالميسور من الهبات ، ويتجمع المؤنثون والفاسقات تحت قصر اللؤلؤ حيث يشاهدهم الخليفة (الفاطمي) وبأيديهم الملاهي ، وترتفع الأصوات ، وتشرب الخمور في الطرقات ، ويتراش بالماء ، وبالماء والخمر ، وبالماء ممزوجًا بالقاذورات ، فإن غلط مستور وخرج من داره لقيه من يرشه ويفسد ثيابه ، ويستخف بحرمته ، فإما فدى نفسه ، وإما فُضِحَ . . " [١] .

أما فيما يتعلق بتقواه وسلوكه العبادي ، وخشيته من الله : فإن مرافقه القاضي بهاء الدين يحدثنا الكثير عن جانب التقوى والخشية والعبادة التي شاهدها منه في حله وترحاله ، يقول القاضي : " وكان رحمه الله خاشع القلب ، غزير الدمعة ، إذا سمع القرآن خشع قلبه ، ودمعت عينه . . وكان رحمه الله كثير التعظيم لشعائر الدين ، وكان مبغضاً للفلاسفة والمعطِلة ، ومن يعاند الشريعة ، وإذا سمع عن معاند ملحد في مملكته كان يأمر بقتله " .

" وكان ناصرًا للتوحيد ، وقامعًا أهل البدع ، لا يؤخر صلاة ساعة إلى ساعة ، وكان له إمام مواظب على التنقل معه في غدواته وروحاته ، يصلي به الصلوات الخمس في أوقاتها ، فإذا غاب هذا الإمام صلى به من في حضرته من أهل العلم المتجنبين للإثم ، وكان يواظب على صلاة السنة ، وكان له ركعات يصليها إذا استيقظ بوقت من الليل ، وإلاَّ صلاها قبل صلاة الصبح " .

ويقول أبو شامة صاحب كتاب " الروضتين في أخبار الدولتين " : أنه رآه يصلي في مرضه الذي مات به وهو قائم ، وما ترك الصلاة إلا في الأيام الثلاثة التي تغيَّبَ فيها ذهنه ، وكان إذا أدركته الصلاة وهو سائر نزل وصلى . . " وكان يوصي أولاده ومن يعيّنهم من الولاة بتقوى الله ، وامتثال الأوامر الإلهية ، وحفظ الحقوق واجتناب الظلم . . نقل " ستانلي لين بول " عن المؤرخين المسلمين أنه قال لابنه الظاهر ذات يوم: "أوصيك بتقوى الله ؛ فهي رأس كل خير ، وآمرك بما أمر الله به ؛ فإنه سبب نجاتك ، واحذر

---

[١] ذكره المقريزي في خططه .

من الدماء والدخول فيها ، والتقلد بها ؛ فإن الدم لا ينام ، وأوصيك بحفظ قلوب الرعية ، والنظر في أحوالها ؛ فأنت أميني وأمين اللّه عليهم " . .

فقائد هذه حاله ، ورئيس هذه صفاته ! . . هل يعقل أن يتخلى اللّه عنه ، أو يخذله في أحرج المواقف ، وأقسى الظروف والشدائد ؟ .

يقول القاضي ابن شداد : " كان إذا سمع أن العدو قد داهم المسلمين خر إلى الأرض ساجدًا للّه ، داعيًا بهذا الدعاء : (إلهي قد انقطعت أسبابي الأرضية في نصرة دينك ، ولم يبق إلا الإخلاد إليك ، والاعتصام بحبلك ، والاعتماد على فضلك أنت حسبي ونعم الوكيل . .) ويقول : (ورأيته ساجدًا ، ودموعه تتقاطر على شيبته ، ثم على سجادته ، ولا أسمع ما يقول، ولم ينقض ذلك اليوم إلا ويأتيه أخبار النصر على الأعداء . . وكان أبدًا يقصد بوقعاته الجُمَعَ سيما أوقات صلاة الجمعة تبركًا بدعاء الخطباء على المنابر ، فربما كانت أقرب للإجابة " . .

وهذا النهج الذي نهجه صلاح الدين هو نهج الخلفاء من قبله ، حيث كانوا يأمرون الأجناد بتقوى اللّه ، والجيوش من الاحتراس للمعاصي ، والأمة بالعمل بأحكام الإسلام. . فهذا عمر بن الخطاب الخليفة الراشد رضي الله عنه كتب إلى سعد بن أبي وقاص حين وجهه إلى فتح فارس عهدًا هذا نصه : " أما بعد : فإني آمرك ومَن معك بتقوى اللّه على كل حال ، فإن تقوى اللّه أفضل العدة على العدو ، وأقوى المكيدة في الحرب ، وآمرك ومَن معك أن تكونوا أشد احتراسًا من المعاصي منكم من عدوكم ؛ فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم ، وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم للّه ، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة ؛ لأن عددنا ليس كعددهم وعدتنا ليست كعدتهم ، فإن استوينا في المعصية كان لهم علينا الفضل في القوة ، وإن لا ننصر عليهم بفضلنا لم نغلبهم بقوتنا .

فاعلموا أن عليكم في سيركم حفظة من اللّه يعلمون ما تفعلون فاستحيوا منهم . . فلا تقولوا : إن عدونا شر منا ، فلن يسلط علينا وإن أسأنا ، فربَّ قوم سلِّط عليهم مَن هو شرٌّ منهم كما سلط على بني إسرائيل – لما عملوا بالمعاصي – كفار المجوس .

وسلوا اللّه العون على أنفسكم كما تسألونه النصر على عدوكم وأسأل اللّه ذلك لنا ولكم " .

نستنتج من هذا كله أن هذه الأمة الإسلامية لا تنتصر على أعدائها في كل زمان ومكان إلا بتقوى اللّه ، والثقة به ، والالتجاء إليه ، والعمل بشريعته والامتثال لأوامره ، والاجتناب لنواهيه . . فهذا هو طريق النصر ، وهذا هو طريق الخلود ، وهذا هو طريق الحياة .

٢ – الإعداد الكامل والاهتمام البالغ لقضية التحرير :

من الأمور التي أجمع عليها المؤرخون عن صلاح الدين أن اهتمامه لقضية التحرير كان اهتمامًا بالغًا ملك عليه وقته وراحته ، واستحوذ على كل ما تتطلبه النفس من أشواق ، وما تنشده من اطمئنان واستقرار ، يقول مرافقه القاضي بهاء الدين في وصف حال صلاح الدين في استنفار المسلمين ، واستنهاض هممهم للجهاد في سبيل اللّه ، ووقفته الباسلة أمام الصليبيين : "كان رحمه الله عنده من القدس أمر عظيم لا تحمله الجبال " ، وقال : " وهو كالوالدة الثكلى ، يجول بفرسه من طلب إلى طلب ، ويحث الناس على الجهاد ، ويطوف بين الأطلاب بنفسه وينادي : يا للإسلام ! . . وعيناه تذرفان بالدموع ، وكلما نظر إلى عكا ، وما حل بها من البلاء ، وما يجري على ساكنيها من المصاب العظيم ، اشتد في الزحف ، والحث على القتال ، ولم يطعم في ذلك اليوم طعامًا البتة ، وإنما شرب أقداح دواء كان يشير بها الطبيب " ، وقال : "والسلطان يوالي هذه الأمور بنفسه . ويكافحها بذاته ، لا يختلف عن مقام من هذه المقامات ، وهو من شدة حرصه ، ووفور همته كالوالدة الثكلى ، ولقد أخبرني بعض أطبائه أنه بقي من يوم الجمعة إلى يوم الأحد لم يتناول الغذاء إلا شيئًا يسيرًا لفرط اهتمامه " .

" وكان حديث الجهاد يشغله دائمًا ، ويستولي على قلبه وجوانحه استيلاءً عظيمًا بحيث لم يكن له حديث إلا عنه ، ولم يكن له نظر إلا في وسائله ، أو اهتمام إلا برجاله، ولا ميل إلا إلى من يذكره ويحث

عليه " . ومن أجل الجهاد وإعلاء كلمة الله هجر أهله وولده ، وظل بعيدًا عنهم فترة طويلة من عمر الجهاد حتى يخلص الأرض المقدسة من براثن الصليبية الحاقدة ، ويطهرها من الغزاة المتوحشين .

أما اهتمامه رحمه الله بالاستعداد الحربي ، وتهيئة أسباب القوة المادية فلا يقل عن اهتمامه بالإعداد الروحي والمعنوي ، فمن ضروب هذا الاستعداد إنشاؤه ديوانًا للجيش ، وكان لصاحب هذا الديوان اختصاصات واسعة . "منها أن ينتقل أثناء المعركة من صف إلىصف للتأكد من سلامة الخيل ، وصلاحية السلاح وعدد الجنود، واستعراض ملابسهم وزينتهم وإنهم جميعًا في حال مرضي . .

كما اهتم بصناعة الأسلحة ، وبناء السفن ، وعمل المفرقعات ، وتركيب الألغام والمجانيق وما إليها من أدوات القتال . وقد عني صلاح الدين بالأسطول، فأنشأ له ديوانًا خاصًّا به يختص بموارده ، وطرق صرفها ، وإدارة شؤون الأسطول . وأطلق على رئيس الأسطول " أمير البحر " أو " أمير الماء " [1] .

وبعد هذا الاهتمام البالغ ، والإعداد الكامل . . يكر على العدو بإيمان راسخ ، وعزيمة صادقة ، فإذا هو مندحر منهزم لا يلوي على شيء .

وهذا سبب في دحر العدو ، والوصول إلى شاطئ النصر والكرامة .

٣ – وحدة البلاد السياسية تحت إمرة واحدة :

سبق أن ذكرنا أن صلاح الدين رحمه الله حين انتصب على كرسي الوزارة بمصر ، ومات آخر خليفة فاطمي سنة ٥٦٧ هـ ، أصبح صلاح الدين سلطانًا على مصر ، ثم وسع دائرة مملكته ، فغزا بلاد النوبة (جنوبي مصر) ، واحتل بلاد اليمن والحجاز ، وأصبح البحر الأحمر كله تحت حكمه وسيادته ، ومما ذكرناه كذلك أن (نور الدين) صاحب البلاد الشامية حين وافاه الأجل ، عمل صلاح الدين على ضم مملكته إليه بعد أن دخلها الانقسام والاضطراب ، فامتلك دمشق وحلب وبقية البلاد الشامية . . وتكونت لصلاح الدين يومئذ وحدة إسلامية ، تشمل شمال العراق ، (كردستان) ، والشام ، واليمن ، ومصر ، وبرقة . . . وغيرها .

---

[1] عن كتاب " صلاح الدين " لمؤلفه الدكتور جمال الدين الرمادي ص ٥٧ .

ولا شك أن إرساء هذه الوحدة ، وتثبيت دعائمها كان له أكبر الأثر في تحرير الأرض المقدسة بعد أن كانت تحكم من قبل الصليبيين ما يناهز المائة عام ، ومما لا يتجادل فيه اثنان ، أن البلاد حين توحد إسلاميًّا ، وترتبط ببعضها سياسيًّا، وحين يتولى إمرتها رجل مؤمن ، وبطل محنك ، وقائد شجاع ، وسلطان مدرب ، وأمير مخلص . . فإن النصر للأمة الإسلامية لابد أن يتحقق ، وأن راية العز الإسلامي ستخفق لا محالة في أرض الإسلام وبلاد المسلمين .

وهذا ما استطاع أن يفعله البطل المخلص صلاح الدين ، قاهر الصليبيين ، وطارد الغزاة المتوحشين ، ومحرر المسجد الأقصى : ثالث الحرمين ، وأولى القبلتين ، ومهد عيسى ، ومسرى النبي ﷺ . رحمه الله وغفر له ، ورفعه في الآخرة مقامًا عليًّا .

٤ – الهدف من القتال إعلاء كلمة اللّه :

من المقرر في الشريعة الإسلامية أن المجاهد قبل أن يخوض معارك الجهاد ، ويقاتل أعداء الإسلام ، عليه قبل كل شيء أن يحرر النية من كل قتال لأجل المغانم أو السمعة أو الحمية أو الرياء . . حتى يكون جهاده خالصًا لوجه اللّه ، وفي سبيل مرضاته تحقيقًا لقوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ آمَنُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ ﴾ (النساء : ٧٦ .) .

وفي الحديث : لما سئل النبي ﷺ عن الرجل يقاتل ، شجاعة ، ويقاتل حمية ، ويقاتل رياء . . أيهم في سبيل اللّه ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : "من قاتل لتكون كلمة اللّه هي العليا فهو في سبيل اللّه"[1] .

انطلاقًا من مبدأ القتال لإعلاء كلمة اللّه خاض صلاح الدين حروبه مع الصليبيين ، فقد ذكر القاضي بهاء الدين بن شداد في كتابه (النوادر السلطانية) حكاية يؤخذ من مغزاها ومعناها أن قتال صلاح الدين للفرنج كان في سبيل اللّه وإعلاء كلمته ، قال القاضي : " لأحكينَّ عنه ما سمعت منه . . في ذي القعدة سنة ٥٨٤ هـ ، أعطى العسكر دستورًا ، وأخذ عسكر مصر في العودة إلى مصر ، وكان أخوه الملك العادل أمير الجيش ، فسار معه ليودعه ، ويحظى بصلاة العيد في القدس ، وقع له أن يمضي

[1] البخاري ومسلم .

إلى عسقلان ويودعهم بعسقلان ، ثم يعود على طريق الساحل يتفقد البلاد الساحلية إلى عكا ، ويرتب أحوالها ، فأشاروا عليه ألا يفعل ، فإن العساكر إذا فارقتنا نبقى في عدة يسيرة ، والفرنج كلهم في صور ، وهذه مخاطرة عظيمة ، فلم يلتفت رحمه الله وودع أخاه والعسكر بعسقلان ، ثم سرنا في خدمته إلى الساحل طالبين عكا ، وكان الزمن شتاء ، والبحر هائجًا شديدًا ، وموجه كالجبال . . فبينما أَنا في ذلك التفت إليَّ صلاح الدين رحمه الله وقال : أما أحكي لك شيئًا في نفسي : إنه متى ما يسر اللّه تعالى فتح بقية الساحل ، قسمت البلاد ، وأوصيت ، وودعت ، وركبت هذا البحر إلى جزائره ، وأتبعتهم فيها لا أبقي على وجه الأرض من يكفر باللّه أو أموت ! . . فعظم هذا الكلام عندي . . ثم قال القاضي للبطل : ما ينبغي أن يخاطر المولى بنفسه وبعسكره في ركوب البحر ، والعسكر هو سُور الإسلام ومنعتُه ، فقال له صلاح الدين: أنا استفتيتك، ما أشرف الميتتين عندك ؟ فقلت : الموت في سبيل اللّه ، قال صلاح الدين : غاية ما في الباب أن أموت أشرف الميتتين ؟ . فانظر إلى هذه الطوية ما أطهرها ، وإلى هذا النفس ما أشجعها وأجرأها ، رحمة اللّه عليه ، اللهم إنك تعلم أنه بذل جهده في نصرة دينك ، وجاهد رجاء رحمتك فارحمه " اهـ كلام القاضي .

وسبق أن أشرنا إلى استغاثته ، والإلحاح في دعائه حين مقارعته للأعداء ، ومنازلتهم. . فمن دعائه في هذا المجال : " إلهي قد انقطعت أسبابي الأرضية في نصرة دينك ، ولم يبق إلا الإخلاد إليك ، والاعتصام بحبلك ، والاعتماد على فضلك ، أنت حسبي ونعم الوكيل " ، وهذا دليل آخر على أن جهاده كان في سبيل اللّه .

ومن الأدلة الأخرى التي تؤكد أن قتاله كان لإعلاء كلمة اللّه : مواقفه النبيلة التي وقفها مع أعدائه ، والمؤرخون جميعًا من شرقيين وغربيين ، ومسلمين ومستشرقين قد أفاضوا في تعداد هذه المواقف ، وتسجيل هاتيك المآثر . . منها توزيعه المال والدواب على المرضى والمسنين والفقراء من الفرنجة، ومنها قبول فدائه للأسرى ، وإكرامهم ، وعدم التعرض لهم بأذى. . إلى غير ذلك – مما سنذكره في حينه – من المآثر الكريمة، والمواقف الخالدة التي سجلها التاريخ في صفحاته ، وتلقتها الأجيال عن الأجيال .

ويقول الدكتور (فيليب حتي) في ذلك : (وكان الفرق جليًّا بين معاملة صلاح الدين للصليبيين المدنيين من الإفرنج ، ومعاملة الإفرنج للمسلمين قبل ذلك بثمان وثمانين سنة) . ولقد ذكرنا الشيء الكثير في بحث " سياسة صلاح الدين في معاملة الصليبيين " عن رحمة صلاح الدين بالأسرى ومعاملته النبيلة للنساء والأطفال والشيوخ، فارجع إليه .

٥ – قضية التحرير كانت قضية الإسلام والمسلمين :

ومن الأمور التي قررتها الشريعة الإسلامية : أن الكفار إذا اغتصبوا أرضًا للمسلمين ، وجب على جميع المسلمين في الأقطار الإسلامية أن يقوموا قومة الرجل الواحد ، لتخليص الأرض المغتصبة من براثن الأعداء ، واستيلاء الكفار ، وإذا قصروا في هذا الواجب فإن المسؤولية الإلهية والتاريخية تعم الأمة الإسلامية قاطبة في مشارق الأرض ومغاربها لتقصيرهم المفرط وتهاونهم الأليم . . وصدق اللّه العظيم القائل :

﴿ إِلاَّ تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (التوبة : ٣٩) . والقائل : ﴿ انْفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُواْ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (التوبة : ٤١) .

انطلاقًا من هذه الفكرة ، وتحقيقًا لهذا المبدأ جمع صلاح الدين الكردي جموع المسلمين على اختلاف أجناسهم وألوانهم ولغاتهم تحت لواء الوحدة الإسلامية ليقفوا وقفة صامدة أمام الصليبية الحاقدة ، والاستعمار اللئيم ، أمام القوة الباغية التي دنست مهد عيسى j وانتهكت مسرى محمد ﷲ بوحشية فاجرة ، وهمجية وضيعة ، وتسلط بغيض .

وكيف لا يهب المسلمون هبة الرجل الواحد ، وقد جعلهم الإسلام إخوة متحابين متراحمين متعاطفين كالجسم الواحد إذا اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى ؟ .

وكيف لا . . وقد جمعهم الإسلام تحت راية واحدة على اختلاف أجناسهم وألوانهم ولغاتهم ، لا فضل لعربي على عجمي ، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى ؟ ! .

وكيف لا . . وهم أبناء عقيدة واحدة يجمعهم الدين ، ويوحدهم القرآن، ويؤلف بينهم الإسلام ، وترفرف فوق هاماتهم المرفوعة راية التوحيد ؟ ! .

وكيف لا . . وكل شبر من الأرض يذكر فيها اسم اللّه هي أرضهم ، وكل ديار ترفرف عليها راية الإسلام هي ديارهم ؟ ! وما أحسن ما قال بعضهم :

ولست أدري سوى الإسلام لي وطنًا ... الشام فيه ووادي النيل سيَّان

وكلما ذكر اسم اللّه في بلدٍ ... عددت أرجاءه من لب أوطاني

وكيف لا . . وكل واحد من جنود صلاح الدين كان يتمنى أن ينال الشهادة في سبيل اللّه ، حتى إذا خرّ شهيدًا في المعركة تمثل بقول القائل :

ولست أبالي حين أُقَتَلُ مسلمًا ... على أي جنبٍ كان في اللّه مصرعي

أو قال : " عجلت إليك ربي لترضى " ، أو قال : " فزتُ وربِّ الكعبة" ؟ ! .

وهكذا انخرط في جيش صلاح الدين كل مسلم آمن باللّه ربًّا ، وبالإسلام دينًا ، وبمحمد ﷺ نبيًّا ورسولًا بغضِّ النظر عن جنسه أو لغته . . لأن القضية التي من أجلها يجاهدون وفي سبيلها يستبسلون ويستشهدون هي قضية الإسلام الأولى ، وقضية المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها .

* * *

الفصل العاشر

فلسطين بين الأمس واليوم

ولا يفوتنا في هذه المناسبة – ونحن نستعرض سر الانتصار على الصليبيين وأسبابه– أن نعرج على أسباب الفشل والعار والخزي والهوان في حروبنا اليوم مع اليهود في فلسطين ، وإن شئت قل عن هزيمتنا المنكرة التي منيت بها أمتنا في القرن العشرين، أمام مَن ؟ أمام أذل أمة على مرَّ التاريخ ، أمام من جعل اللّه منهم القردة والخنازير ، أمام من حلَّ عليهم غضب اللّه ولعنته إلى يوم الدين ، أمام مَن عُرفوا بالغدر والجبن والخيانة ، أمام من اشتهروا بالخسَّة والدناءة والنذالة ، أمام اليهود أصحاب المكر والغدر عبر العصور والتاريخ .

وإذا كنا في الفصل التاسع نقبنا عن سر الانتصار الذي أحرزه السلطان صلاح الدين في حروبه مع الصليبيين ، فلنبحث في هذا الفصل عن أسباب الفشل والهزيمة التي منيت بها الأمة الإسلامية في معاركها مع اليهود منذ عام ١٩٤٨ م حتى نشر هذا الكتاب [١] .

وأسباب الفشل – في نظري – تنحصر في الأمور التالية :

١ – انهيار الجانب المعنوي والروحي :

فإذا كان من أسباب النصر في حطين " تقوى اللّه والاحتراس من المعاصي " فإن من أسباب الفشل والهزيمة في معاركنا مع اليهود هو " انهيار الجانب المعنوي والروحي" الذي حلَّ في صفوف الأمة ، والذي طغى على الجيوش التي باشرت الحرب ، وكافحت العدو في معارك الجهاد . كم سمعنا عن محاربين في الصفوف الأمامية كانوا يحتسون الخمر ، ويرفه لهم بالمومسات والمغنيات ، والعدو أمامهم يرقب أوضاعهم ، ويتعرف على انهيارهم الروحي ، وميوعتهم الخلقية ؟ .

---

[١] كان نشره عام ١٩٧٤ م في السنة التي طبع فيها الكتاب لأول مرة .

وكم سمعنا من بعض الإذاعات العربية في اللحظات التي كانت فيها الحرب مستعرة، والقتال على أشده كانت الصيحات تلهب حماس المحاربين بمثل هذه الكلمات : قاتلوا واضربوا واسحقوا العدو ، إن الفنانين والفنانات من ورائكم ، إن فلانة المطربة معكم ، والأخرى الممثلة بجانبكم ، أما الله : أما التقوى : أما استمطار الغوث الإلهي ؟ فلم يكن في الحسبان .

وكم سمعنا عن قيادات عربية وزعت – قبل المعركة بأيام – عشرات الآلاف من صور المطربات والممثلات على الجنود المرابطين في خط النار تشجيعًا لهم على الميوعة، وتقوية لروحهم المنهارة ؟ .

وكم سمعنا عن مجلات رسمية كانت تروِّج للإلحاد ، وتشيع الكفر والضلال قبل حرب (١٩٦٧ م) بشهر دون حياء ولا خجل ، حتى بلغت الوقاحة في كاتب ملحد أن يكتب مقالًا في مجلة مسؤولة عنوانه " الطريق لخلق إنساننا العربي الجديد " فمما جاء في المقال :

" استنجدت أمة العرب بالإله . . فتشت عن القيم القديمة في الإسلام والمسيحية . . استعانت بالنظام الإقطاعي والرأسمالي وبعض النظم المعروفة في العصور الوسطى . . كل ذلك لم يجد فتيلًا " ويتمم الكاتب حديثه ، فيقول : " والطريق الوحيدة لتشييد حضارة العرب ، وبناء المجتمع العربي ؛ هو خلق الإنسان الاشتراكي العربي الجديد " .

والإنسان الذي يريد أن يخلقه هذا المجرم الملحد هو الإنسان " الذي يؤمن أن الله والأديان والإقطاع ، والرأسمال والاستعمار ، والمتخمين ، وكل القيم التي سادت المجتمع السابق ، ليست إلا دُمى محنطةً في متاحف التاريخ " .

ومما يؤسف له ، ويترك في القلب لوعة وحسرة : أن تنشر مجلة المعلم العربي [1] قصيدة لشاعر ملحد باع دينه وشرفه وضميره للشيطان بل ذهب يعلنها إلحادية سافرة، وإباحية فاجرة ، ومبادئ ضالة كافرة ، فمما جاء في هذه القصيدة :

[1] من مجلة المعلم العربي في عددها الخامس السنة الثانية عشرة سنة ١٩٦٥ عن عدد تشرين الثاني كانون الأول ص ٥٤ عنوان القصيدة " نشيد العروسة الضائعة " لصالح عضيمة .

جاءت تسير بلا دربٍ ولا قدم =هذي فلسطين يحلى ذكرها نغمي

تسائل القوم هل صلوا وهل عبدوا إني كفرت بهم حقدًا وبالصنم

وما صلاة لهم تسمو بموكبها واللّه مات مع الأوثان من قدم

إذا أَلَمَّ بهم ضيم فأرقهم توجهوا لا تجاع الغيب والحكم

يلوذ بالغيب من هانت شمائله ويركب الهول قلب لاذ بالشيم

ثم يقول لعنة اللّه عليه :

تكشَّفَ الجمع عن صبرٍ ومعذرةً إني كفرت برب الصبر من حَكم

ومن العجيب أن تنشر هذه القصيدة مجلة المعلم العربي التي يدعي محرروها أن هذه المجلة هي المجلة التربوية الوحيدة التي أنشئت لأجل غرس بذور الإيمان والأخلاق والعلم في نفوس المعلمين والطلاب ، وإذ تطالعنا بهذه القصيدة الملحدة التي يتقاطر منها الحقد واللؤم والخبث على عقائد الأمة ، ورسالات الأنبياء !. . فهل يعقل – والمحاربون على هذه الحال – أن ينالوا من عدوهم نيلًا أو ينصرهم الله في معركة المصير ؟

أليس حال أولئك المتحللين أشبه ما تكون بحال أبي جهل لعنه اللّه حيث أرسل إليه أبو سفيان أن ارجع بالجيش فإن عيرنا قد نجت ، فما كان جواب أبي جهل إلا أن قال: (واللّه لا نرجع حتى نرد بدرًا ، فنقيم عليه ثلاثًا ، فنطعم الطعام ، وننحر الجزور ، ونشرب الخمر ، وتعزف علينا القيان . . وتتحدث العرب بمسيرنا) .

ألم يضع عمر بن الخطاب رضي الله عنه المنهج الواضح ، والتخطيط الكامل، لكسب المعركة ، والانتصار على العدو ؟ ألم يقل لقائده سعد بن أبي وقاص حين وجهه لفتح فارس : " أما بعد فإني آمرك ومن معك بتقوى اللّه على كل حال ، فإن تقوى اللّه أفضل العدة على العدو ، وأقوى المكيدة في الحرب . . وآمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراسًا من المعاصي منكم من عدوكم ، فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم ، وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم للّه ، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم

قوة ؛ لأن عددنا ليس كعددهم ، وعدَّتنا ليست كعُدَّتهم ، فإن استوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوة ، وإلاننصر عليهم بفضلنا لم تغلبهم قوتنا " .

إلى آخر ما جاء بهذا العهد الذي أخذه عليهم ، وبالنصح الذي وجهه لهم .

فهذا بالنسبة للمعاصي ، فكيف بمن ينكر وجود الخالق ، ويجهر بالدعاء إلى الإلحاد ويجحد مبادئ الدين والأخلاق ؟ . .

فهذه حقيقة هامة ينبغي أن تعيها الأمة الإسلامية بشكل عام ، والدول العربية بشكل خاص إن أرادوا أن يصلوا إلى قمة الكرامة والنصر المبين . وصدق الّله العظيم القائل :

﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ (الحج : ٤٠) .

والقائل : ﴿ إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ (محمد : ٧) .

٢ – التفرق والتنابذ والخصام :

وإذا كان من أسباب النصر في حطين : " وحدة البلاد السياسية تحت إمرة واحدة " فإن من أسباب الفشل والهزيمة في معاركنا مع اليهود اليوم هو (التفرق والتنابذ والخصام) .

وكم سمعنا عن مهاترات واتهامات وشتائم بين الملوك ورؤساء الحكومات كانت تنقلها أمواج الأثير إلى أسماع الدنيا هنا وهناك ، وكلٌّ يتهم الآخر بالعمالة والخيانة ، وكلٌّ يصبُّ جام غضبه على الآخر ليغضَّ من شأنه ، ويظهره بمظهر الخائن العميل ، والعدو يرقب بعين ساهرة هذه الاتهامات والشتائم ، ولا شك أنه ينتشي فرحًا ، ويرقص طربًا على ما وصلت إليه حال الأمة الإسلامية من تنابذ وعداوة وبغضاء ، بينما العدو يتقوى ماديًّا ومعنويًّا ويشجع كل يهودي في العالم على الهجرة إلى فلسطين، ويعمل ليل نهار ليصل إلى تنفيذ مخططه من الفرات إلى النيل .

وما هذا التفرق والشتات الذي منيت به الحكومات العربية في عصرنا اليوم إلا من نتائج التخلي عن الإسلام ، فلقد أثار هؤلاء الحكام بمبادئهم المستوردة سواء أكانت شرقية أو غربية فئات الشعب

بعضها على بعض ، وأثاروا حفيظة الحكومات التي لا تقبل مبادئهم ، ولا تلتقي مع أفكارهم ومعتقداتهم ، وكان من نتيجة ذلك التباين في المناهج، والاختلاف في السُّبُل ، والتناقض في المذاهب والأفكار .

فهذا ينتمي إلى واشنطن ، والآخر ينتمي إلى لندن ، وهذا ينتمي إلى موسكو ، والآخر ينتمي إلى بكين ، وهذا يسمى باليمين ، وهذا يسمى باليسار ، وهكذا تفرقت الأمة العربية المسلمة إلى شيع وأحزاب ، ودول أو دويلات ، صنفها المصنفون إلى ثوريين ومحافظين ، إلى تقدميين ورجعيين . ولم يكن في الإمكان أن يجتمعوا على فكرة واحدة ، أو أن ينضووا تحت راية واحدة ، لأنهم تخلُّوا عن شريعة الإسلام ، وتنكَّبوا عن الحكم بما أنزل الله . وهذا ما حذر منه القرآن الكريم حيث قال : ﴿ وَأَنَّ هَـذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ﴾ (الأنعام : ١٥٣) . ﴿ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ (الأنفال : ٤٥) .

هل يعقل – والمسلمون على هذه الحال – أن ينالوا من عدوهم نيلًا أو ينصرهم الله في معركة المصير ؟

٣ – الاهتمام للقضية بالقول لا بالفعل :

وإذا كان من أسباب النصر في حطين : (الإعداد الكامل والاهتمام البالغ لقضية التحرير) ، فإن من أسباب الفشل والهزيمة في معاركنا مع اليهود اليوم هو (الاهتمام للقضية بالقول والتبجح والتدجيل) .

ومنذ أن ظهرت على الوجود قضية فلسطين كم سمعنا عن خطب رنانة، وكلمات حماسية ملتهبة تُلقى أمام الجمهور المحتشد لإلهاب عواطفه، واستثارة مشاعره ، والجمهور الساذج يقابل هذه الكلمات بالتصفيق الحاد ، والهتاف المدوي حماسًا وتأثرًا ولكن دون أن يعقب ذلك أعمال إيجابية ، وإعدادات عسكرية . . أما قال الله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ .

(سورة الصف : ١–٢)

وكلٌّ يدعي وصلًا بليلى وليلى لا تقر لهم بذاكا

بل كانت القضية الفلسطينية تسير إلى أسوأ ، وكلما انتهينا من نكبة وقعنا في نكبة أشد وأعظم ، وكل يوم يُشْرق على الدنيا شمسه هو من صالح إسرائيل قوة وتوسعًا ، وإعدادًا وإحكامًا . . لأن الأمة المسلمة ليست على مستوى القضية والمسؤولية ، والشعوب قد أصابها اليأس والقنوط ، وها هي ذي أخبار الصلح ومشروع (روجرز) ومشروعات أخرى تصل إلى مسامعنا بين الحين والحين ، وها هي بعض الدول العربية تتبنى ما تعلنه الدول الكبرى من مشروعات جملة وتفصيلًا ، وهناك مخطط رهيب لتصفية العمل الفدائي ، وطعن القضية الفلسطينية في الصميم . . ولا شك أن كل هذا لصالح إسرائيل ، ومرحلة أولى لتحقيق مطامعها التوسعية ، وأهدافها الاستعمارية الكبيرة .

ومن حين أن ولدت إسرائيل حتى اليوم لم يكن أكثر الحكام على المستوى اللائق من الاهتمام للقضية الفلسطينية والجهاد في سبيلها . . ولو كانوا كذلك لأغلقوا دور الفجور، وصالات الرقص ، وحانات الخمر كما فعل " ديجول " في أعقاب تسلمه السلطة أيام الحرب العالمية الثانية ، ولمنعوا من إذاعاتهم وتلفازهم الأغاني الخليعة ، والمسرحيات الماجنة ، والرقص الصفيق ، ولأعدوا الشباب إعدادًا كاملًا من ناحية الخلق والدين ، ولمنعوا من المجتمع كل مظهر من مظاهر التخنث والميوعة والانحلال ! ! . .

فهل يعقل والمسلمون على هذه الحال – من عدم الاهتمام والإعداد والانخراط في بوتقة الميوعة والانحلال – أن ينالوا من عدوهم نيلًا ، أو ينصرهم اللّه في معركة المصير ؟

٤ – القتال لم تكن غايته إعلاء كلمة اللّه :

وإذا كان من أسباب النصر في حطين (القتال لإعلاء كلمة اللّه) ، فإن من أسباب الفشل والهزيمة في معاركنا مع اليهود اليوم هو القتال لأجل العصبيات والأهواء والأفكار المستوردة ، والمبادئ المستحدثة التي لا تمت إلى الإسلام بصلة ولا نسب ، وكم سمعنا عن مسؤولين ورؤساء حين كانوا يخطبون ويحضون الأمة على القتال ، ويستنهضون همتها للحرب ، كانوا لا يذكرون اسم اللّه في كلماتهم ، ولا تسمع حسًّا

ولا ذكرًا للإسلام في أقوالهم وتصريحاتهم وإنما كانوا يعلنونها جاهلية سافرة ، وعصبية جائرة في حض الناس على القتال ، واستنهاض هممهم للحرب .

ففي سنة ١٩٤٨م كانت الدعوة إلى القتال باسم القومية .

وفي سنة ١٩٥٦م كانت الدعوة إلى القتال باسم القومية .

وفي سنة ١٩٦٧م كانت الدعوة إلى القتال باسم المبادئ الثورية .

وفي سنة ١٩٧٣م كانت الدعوة إلى القتال باسم العزة العربية والتحدّي والصمود .

﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ ﴾ (النجم : ٢٣) .

ولسنا ندري ما تطالعنا به الأيام من شعارات كافرة ، ومسميات ضالة ، لا يقصد منها إلا إبعاد الإسلام عن كل مقاومة للعدو ، وعن كل تحرير للأرض المغصوبة ، وأظلمُ من ذلك انبعاث الأقلام المأجورة – في حربنا مع اسرائيل – تناوش الدين ، وتتطاول على ذات الله ، والإسلام ، والرسل ، فمن جملة ما قرأنا لأحد العملاء [1] التقدميين في كتاب أسماه (من النكسة إلى الثورة) قوله : (إن العلم سيجد نجاته عن طريق المتمردين ، فبدونهم ستلقى حضارتنا وثقافتنا وكل ما نحب نهايته . . فهؤلاء المتمردون هم ملح الأرض ، ومسؤولون عن الله ؛ لأنني مقتنع بأنه لم يوجد بعد ، وإن كان علينا أن نخلقه) .

فهل ننتصر بهؤلاء الثوريين المتمردين على الله وعلى شرائعه وعلى رسالاته وأنبيائه ، أم نسير من نكبة إلى نكبات ، ومن كارثة إلى كوارث ؟ . .

فهل يرجى من هؤلاء خير ؟ وهل يتحقق على أيديهم نصر ، وهم بهذا التمرد السافر، " على الله " " والقيم العليا " " والإسلام " . وهل يمكن أن يكون هؤلاء يومًا، جنود فداء، وأبطال معركة ؟

لن تتحرر فلسطين بهؤلاء الملحدين الأقزام .

لن تتحرر فلسطين وتزول إسرائيل بجاحدي الأديان ، ومنكري الخالق .

---

[1] اسمه نديم البيطار .

لن تتحرر فلسطين بالعابثين المجرمين من عشاق الفجور ومدمني الخمور .

(إني على يقين أن إسرائيل لن تزول ، وفلسطين لن تتحرر إلا على أيدي المؤمنين الصادقين ، الراكعين الساجدين ، الآمرين بالمعروف ، والناهين عن المنكر ، والحافظين لحدود الله ، الذين يخوضون المعارك أطهارًا متوضِّئين ، قد تطهرت قلوبهم ، قبل أن تتوضأ أعضاؤهم . . أولئك الذين لا يقف لهم أحد ، ولا تصمد أمامهم قوة إذا نادى فيهم المنادي . . هبي ياريح الجنة يا نصر الله اقترب ، يا رجال القرآن زيِّنوا القرآن بالفعال .

أولئك الذين يثورون على التفكير المادي ، ويسخرون من لغة الأرقام ، ولا يعبأون بما لدى العدو من "كم " واثقين بما معهم من "كيف " قد اتسع أفقهم فتجاوزوا الأرض إلى السماء ، وتخطوا عالم الشهادة إلى عالم الغيب، وآمنوا بأنهم إن فقدوا ولاية الناس ونصرة العالم ، فإن معهم الله جل شأنه ﴿ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا ﴾ ، ومعهم جنود الله ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ . أولئك هم الذين ستُحرر بهم فلسطين، وتُقتلع بهم جرثومة اليهودية من أرض الإسلام ، ليس لهؤلاء هدف إلا إعلاء كلمة الله، ولا عنوان إلا الإسلام ، ولا شعار إلا العبودية لله ، ولا هتاف إلا " الله أكبر" .

وإلى هؤلاء المحاربين المؤمنين أشار النبي ﷺ في حديث له حيث قال : "لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود ، فيقتلهم المسلمون ، حتى يختبئ اليهودي وراء الحجر والشجر ، فيقول الحجر والشجر : يا مسلم ، ياعبد الله ، هذا يهودي خلفي تعال فاقتله " [1] . .

هؤلاء هم قتلة اليهود ، ومحررو فلسطين ، إنهم " المسلمون " لا الأردنيون ، ولا السوريون ، ولا الفلسطينيون ، ولا العرب . . فقد تخلوا عن هذه العناوين ولم يبق لهم عنوان إلا " المسلمون " .

هؤلاء هم الذين يناديهم الحجر والشجر : يا مسلم ، يا عبد الله . فليس لهم راية إلا الإسلام ، وليس لهم شطر إلا العبودية لله وحده . هذا هو المقاتل الذي ترتجيه الأمة، وهو الذي سيزيل ملك إسرائيل والذي سيقتل اليهود نبَّأنا الذي لاينطق عن الهوى أنه " المسلم " المسلم الذي خالطت قلبه

---

[1] رواه مسلم .

بشاشة الإيمان ، واتقدت بين جوانحه شعلة اليقين ، وباع الحياة الدنيا بالآخرة ، وليس المسلم " الجغرافي " الذي ورث الإسلام من أبويه كما ورث اسمه ولقبه ، فليس له من الاسم إلا العنوان والتسجيل في شهادة الميلاد ، إنه "ع بد اللّه " ، أما عبد الشهوات ، عبد المرأة ، عبد الكأس ، عبد الدنيا والدرهم ، عبد المبادئ المستوردة من صناعة اليهود . . أما هذا فلن يتحقق به نصر ، ولن تتحرر به أرض ، ولن ترتفع به لأمتنا راية ، وليس من ورائه إلا النكسات والوكسات) [1] .

ولقد ذاق اليهود الويلات في حرب ١٩٤٨م لما صمدت لهم فرقة مؤ منة تنتمي إلى الإخوان المسلمين ، هذه الفرقة التي كانت لا تتجاوز الـ ٢٠٠ رجل ، وقد صنعت العجائب ، وحققت ما يشبه المعجزات على الرغم من ضعف الإمكانيات ، وقلة الاستعدادات ، وظهور الخيانات . .

وكيف لا ، وقد خرجت هذه الفرقة المؤمنة تطلب الشهادة في سبيل اللّه، وتسعى إلى الموت ركضًا بغير زاد ، حتى قال أحد اليهود للضابط المجاهد " معروف الخضري " وكان أسيرًا لديهم : (نحن لا نخاف أي قوة كما نخاف من هؤلاء المتطوعين ، فسأله الضابط : ومالذي يخيفكم منهم؟ قال اليهودي : لقد هاجرنا وجئنا من بلاد شتى إلى هذه الأرض لنعيش وهؤلاء جاءوا ليموتوا) .

وكم سمعنا في حرب رمضان الأخيرة عن ضباط مؤمنين ، وجنود مسلمين ممن كانوا يؤدون الخدمة الإلزامية في الجيش السوري قد أبلوا البلاء الحسن ، وثبتوا ثبات الأبطال ، وكبَّدوا العدو اليهودي الخسائر الفادحة ، وحققوا لأمتهم بعض الانتصارات الخالدة . . وما ذاك إلا لقتالهم لإعلاء كلمة اللّه ، وتحلِّيهم بالأخلاق الفاضلة ، والرجولة الكاملة ، والأدب الإسلامي الرفيع . .

إذن فالإيمان باللّه وإعلاء كلمة اللّه ، (**ونيل الشهادة في سبيل اللّه**) ودخول المعركة باسم الإسلام هو أول مقدمات النصر .

ولا يعقل والمسلمون على هذه الحال – من القتال لأجل العصبيات والأهواء والشعارات المستوردة – أن ينالوا من عدوهم نيلًا ، أو ينصرهم اللّه في معركة المصير !

---

[1] من كتاب " النكبة الثانية " للأستاذ يوسف القرضاوي ص ٨٩ .

٥ – جعل قضية فلسطين قضية عربية محضة :

وإذا كان من أسباب النصر في حطين : " جعل قضية التحرير قضية إسلامية " فإن من أسباب الفشل والهزيمة في معاركنا مع اليهود اليوم هو جعل قضية فلسطين قضية العروبة والقومية .

وكم سمعنا من إذاعات ، وقرأنا في صحف ، يروّج مذيعوها وكتّابها الدعوة إلى القومية العربية ، وأن العرب وحدهم هم المسؤولون عن تحرير فلسطين ومجابهة اليهود ؟

أليس في هذه التصريحات والكلمات إغفال وتجاهل لستمائة مليون مسلم يؤمنون بثالث الحرمين ، وأولى القبلتين ، ومسرى سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام ، بل يعتبرون أن القتال في سبيل أرض الإسلام أعظم الجهاد وأسمى الغايات ؟

إن معاركنا مع اليهود باسم القومية أو باسم العروبة ، خيانة للإسلام ، وخيانة للمسلمين ، وخيانة للقضية الفلسطينية .

أما إنها خيانة للإسلام : فلأن المنادين للجهاد باسم القومية أو العروبة أبعدوا الإسلام عن القتال باسمه والجهاد في سبيله .

أما إنها خيانة للمسلمين : فلأن المنادين بالجهاد باسم القومية أو العروبة قد اعتبروا رابطة الإخاء هي رابطة العروبة ، وآصرة الإيمان هي آصرة القومية، والله سبحانه يقول في محكم كتابه : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ (الحجرات : ١٠) . ويقول : ﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ (الأنبياء : ٩٢) .

وهل يفهم من هاتين الآيتين الكريمتين إلا أن الرابطة الحقيقية التي تجمع المسلمين ، وتوحد بينهم هي رابطة العقيدة الإسلامية ، هذه الرابطة اعتبرها الإسلام فوق رابطة الدم والجنس واللون واللغة والتاريخ؟

فهل رأيتم في تاريخ الأمة الإسلامية خيانة أعظم من هذه الخيانة ؟

وهل سمعتم في كل المعارك التي خاضها المسلمون مع أعدائهم في القديم والحديث جحودًا ونكرانًا لأخوة الإسلام مثل هذا الجحود والنكران ؟

أما إنها خيانة للقضية الفلسطينية : فلأن المنادين للجهاد باسم القومية أو العروبة قد وقفوا من المسلمين غير العرب موقف المجافاة والبغضاء لإشعارهم زورًا وبهتانًا أن قضية فلسطين هي قضية العرب وليست قضية المسلمين .

فهل يعقل – بعد ردود الفعل هذه – أن يتحفز المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها لنصرة فلسطين ، والجهاد لأجل الأرض المقدسة بعد أن قطع مروّجوا الدعوة إلى القومية العربية كل آصرة تربطهم بالدول الإسلامية، وفَصَمُوا كل وشيجة تنسبهم إلى عقيدة الإسلام ؟ .

وهل عرف المسلمون في تاريخهم المجيد ، وفي سيرة آبائهم الأولين نسبًا غير نسب الإسلام ، ورابطة غير رابطة الإيمان والقرآن ؟ .

وصدق من قال :

دعيٌّ القوم ينصر مدَّعيه	ليلحقه بذي الحسب الصميم
أبي الإسلام لا أب لي سواه	إذا افتخروا بقيس أو تميم

يقول الشيخ محمد نمر الخطيب في كتابه " الإيمان طريقنا إلى النصر " ص ٨٢ ، (لقد دأب زعماء العرب من سنوات طويلة ليجعلوا قضية فلسطين قضية عربية خالصة، ولست أدري ما الذي دعاهم إلى ذلك ؟. لست أدري ما الذي دعاهم ليتنكروا لمسلمي العالم ، وعددهم أكثر من ألف مليون يحتلون أعظم بقاع الدنيا ، وأغنى مناطق الأرض ، ويملكون الذهب الأسود والأبيض ؟.

لست أدري لِمَ يفعلون ذلك ، وقد رأينا الأمم تسعى لاكتساب الأصدقاء، وتستجدي تأييد الشعوب لها ؟.

غاية ما أستطيع أن أفهمه من صنيع زعماء العرب هذا ، أنهم يريدون أن يسترضوا مواطنيهم من النصارى ، وهم قلة موزعة على بلاد العرب من الخليج إلى المحيط . ولكن هل ينزعج مواطنونا النصارى من نجدة إخواننا المسلمين لإنقاذ فلسطين ، وإنقاذ مهد عيسى ، وكنيسة القيامة ؟

هل ينزعج مواطنونا النصارى ، إذا رأوا المسلمين من غير العرب يسابقون العرب جميعًا إلى بذل دمائهم رخيصة في سبيل إنقاذ الأرض المقدسة ؟) وحجة أولئك الذين يفصلون بين الإسلام والعروبة في حربنا مع اليهود أن العالم اليوم لم يعد يسمع لنغمة الدين والدعوة إليه في قتال أو معركة ، وسيرمينا بالرجعية والتخلف إن نحن جعلنا القضية الفلسطينية قضية إسلامية، ولكن أليس يدري هؤلاء أن إسرائيل حين قامت ، قامت على أسس دينية ، وأنَّ الدعاية التي تقيمها لنفسها في الخارج هي باسم اليهودية .

يقول اليهودي " وايزمان " في مذكراته : (لقد قابلت اللورد بلفور وزير خارجية بريطانيا ، الذي بادر بسؤالي على الفور : لماذا لم تقبلوا إقامة الوطن القومي في أوغندا ؟ وقلت لبلفور : إن الصهيونية حركة سياسة قومية ، هذا صحيح . . ولكن الجانب الروحي منها لا يمكن إغفاله ، وأنا واثق تمام الوثوق أننا إذا أغفلنا الجانب الروحي، فإننا لا نستطيع تحقيق الحلم السياسي القومي) .

ويقول اليهودي " هرتزل " في مؤتمر " بال " الذي عقد سنة ١٨٩٧م : (إن العودة إلى صهيون ، يجب أن تسبقها عودة إلى اليهودية) .

وكتب " بن جوريون " إلى الرئيس " ديجول " رسالة يقول فيها : (إن سر بقائنا بعد التدميرين البابلي والروماني ، وفي حقد المسيحيين الذي أحاطوا بنا ألف عام ، يكمن في صَلاتنا الروحية بالكتاب المقدس) .

لقد وضع زعماء اليهود قسمًا يقوله كل يهودي يبلغ سن الرشد : (هذا يميننا يا إسرائيل . . أقسم أن أكرس ولائي لله ، وللتوراة ، وللشعب اليهودي، وللدولة اليهودية) . .

وتحدث " بن جوريون " في المؤتمر الخامس والعشرين للصهيونية العالمية في ٢٥ ١٢ ١٩٦٠ م وقال : (إن كل يهودي يجب أن يهاجر إلى إسرائيل ، وإن كل يهودي أقام خارج إسرائيل ، منذ نشأتها يعتبر مخالفًا لتعاليم التوراة ، وإن هذا اليهودي يكفر يوميًّا باليهودية) .

ولقد كان من تأثير القيم الروحية في الشعب اليهودي أن توصلوا إلى الأمور التالية:

فالدولة اسمها إسرائيل .

والذي يعمل يوم السبت يُرمى بالحجارة .

والذي يتزوج زواجًا مدنيًّا لا تعترف به الدولة .

والمطاعم التي لا تطبخ على الطريقة اليهودية تقفل أبوابها .

وعلى كل يهودي أن يختار له اسمًا يهوديًّا من التوراة .

ومنذ مدة قصيرة طالب " نسيم " أكبر حاخامية إسرائيل بجعل " التلمود " شريعة إسرائيل ، وكان قبله وزير الشؤون الاجتماعية في الدولة العنصرية ، قد حاول الاعتراف " بالتوراة "ككتاب تسير إسرائيل على مبادئه .

وآخر ما سمعناه من الأخبار أن حزبًا كبيرًا من أحزابهم ، لم يصوت بجانب " جولدا مائير " رئيسة وزراء إسرائيل بحجة أن الديانة اليهودية لا تبيح أن تترأس الدولة امرأة من النساء) [1] .

هل من الحق والمنطق والعدل أن نترك عدونا المغتصب ينطلق باسم الدين، ويتوحد باسم الدين ، ويقيم دولته على أسس دينية ، ونحن دعاة الحق ، وأصحاب القضية نخجل ونستحي أن نُدْخلَ الإسلام الذي هو شريعة اللّه في حساب المعركة ، أو أن يكون قتالنا مع العدو باسم الإسلام الذي به نحيا وعليه نموت ؟ بل وصلت الوقاحة عند كثير ممن يهتَمّون بالقضية الفلسطينية أن يتنكر لستمائة مليون مسلم حين حصروا القضية في العرب وحدهم وفي الدول العربية وحدها .

فهل يعقل – والقتال باسم القومية أو العروبة – أن ينال العرب من عدوهم نيلًا ، أو ينصرهم اللّه في معركة المصير ؟ .

هذه مقارنة وموازنة للحروب الفلسطينية بين الأمس واليوم ألا فليعتبر أصحاب العقول الراجحة ، وليأخذوا من ذلك الدروس والعبرَ ، وليسلكوا الطريق الأقوم في سبيل تحرير الأرض المقدسة من براثن

---

[1] من مجلة الحوادث ٩ شباط العدد ٥٨٧ ١٩٦٨ .

اليهود ، والوصول إلى النصر المؤزر إن أرادوا أن يحققوا لأمتهم عزًّا على مدى الأيام ، ولأجيالهم ذكرًا عظيمًا يتناقله الأبناء إلى الأحفاد .

والطريق الوحيد للنجاة والإنقاذ ودفع العار ، هو الإسلام ، فهو السبيل إلى النصر :

﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ (يوسف : ٢١) .

* * *

الفصل الحادي عشر

صفات صلاح الدين الأساسية

بعد أن تعرضنا في الفصول السابقة للمراحل التي مر بها صلاح الدين منذ نشأته حتى حروبه مع الصليبيين إلى أن توفاه الله وأخذه إلى جواره ، بعد التعرض لكل هذا يحسن بنا أن نتحدث عن الصفات الأساسية التي تحلى بها هذا البطل ، وأن نكشف النقاب عن عبادته المخلصة ، وأخلاقه الشخصية ، ومزاياه العالية . . التي خلدت اسمه في التاريخ . وجعلت له ذكرًا في العالمين .

وإليكم أظهر هذه الصفات وأميز هذه الأخلاق :

١ - تقواه وعبادته :

لا شك أن تقوى الله وعبادته ، والخشية منه ، وحسن الظن به ، والاعتماد عليه . . هي أول ما يجب أن يمتاز به المسلم ، وأفضل ما ينبغي أن يتصف به ؛ لأن الاعتصام بالسند الأكبر ، والاتصال بالله ، والاستعانة به في كل ما ينوب ويروع ، تجعل من المسلم أسدًا كاسرًا لا يعرف الهزيمة ، وبطلًا مقدامًا لا يهاب المنية ، وشجاعًا كرارًا لا يخشى جبارًا ، ولا يهاب عدوًّا ، وهذه السمة من الإيمان والعبادة . وهذه الظاهرة من الإقدام والشجاعة . قد تحققت في القائد البطل صلاح الدين ، وإليكم ما كتبه القاضي بهاء الدين المعروف بابن شداد الذي عاصره واجتمع به وعرف أخباره ، يقول في كتابه " سيرة صلاح الدين " ٥ ما يلي مع بعض التصرف والاختصار :

(وكان رحمه الله حسن العقيدة ، كثير الذكر لله تعالى ، وقد أخذ عقيدته على الدليل بواسطة البحث مع مشايخ أهل العلم وأكابر الفقهاء . . وكان قد جمع له الشيخ (قطب الدين النيسابوري) عقيدة تجمع جميع ما يحتاج إليه في هذا الباب ، وكان من شدة حرصه عليها يعلمها الصغار من أولاده حتى ترسخ في أذهانهم منذ الصغر ، ورأيته وهو يأخذها عليهم وهم يلقونها من حفظهم بين يديه .

وأما الصلاة : فإنه كان رحمه الله شديد المواظبة عليها حتى إنه ذكر يومًا أنه من سنين ما صلَّى إلا جماعة . . وكان يواظب على السنن والرواتب ، وكان له صلوات يصلّيها إذا استيقظ من الليل ، وإلا أتى بها قبل قيام الفجر . . ولقد رأيته قدس اللّه روحه يصلي في مرضه الذي مات فيه قائمًا ، وما ترك الصلاة إلا في الأيام الثلاثة التي تغيب فيها ذهنه ، وكان إذا أدركته الصلاة وهو سائر نزل وصلَّى .

وأما الزكاة : فإنه مات ولم يحفظ ما تجب عليه به الزكاة ، وأما صدقة النفل : فإنها استغرقت جميع ما ملكه من الأموال ، فإنه ملك ما ملك ولم يخلِّف في خزانته من الذهب والفضة إلا سبعة وأربعين درهمًا ناصرية ، وجُرمًا [1] واحدًا ذهبًا ، ولم يخلِّف ملكًا ولا دارًا ولا عقارًا ولا بستانًا ولا قرية ولا مزرعة ، ولا شيئًا من أنواع الأملاك.

وأما صوم رمضان : فإنه كان عليه منه فوائت بسبب أمراض تواترت عليه. . وشرع رحمه الله في قضاء تلك الفوائت بالقدس الشريف فى السنة التي توفي فيها ، وكان الطبيب يلومه على القضاء وهو لا يسمع ويقول : لا أعلم ما يكون ، فكأنه كان ملهمًا ما يراد به رحمه الله تعالى .

وأما الحج : فإنه كان لم يزل عازمًا وناويًا له سيما في العام الذي توفي فيه، ولكن لم يتيسر له بسبب ضيق الوقت ، وخلوّ اليد . . فأخره إلى العام المقْبِل فقضى اللّه ما قضى ، وهذا شيء اشترك في العلم به العام والخاص رحمه الله .

وكان رحمه الله يحب سماع القرآن العظيم ، ويستجيد إمامه ، ويشترط أن يكون عالمًا يعلم القرآن الكريم متقنًا لحفظه ، وكان رحمه الله خاشع القلب غزير الدمعة إذا سمع القرآن يخشع قلبه ، وتدمع عينه في معظم أوقاته . . وكان رحمه الله شديد الرغبة في سماع الحديث وإذا سمع عن شيخ ذي رواية عالية وسماع كثير ، فإن كان ممن يحضر عنده استحضره ، وسمع عليه فأسمع من يحضره في ذلك المكان من أولاده وخاصته المختصين به .

---

[1] الجُرم : النواة من التمر ، والمعنى ترك من الذهب ما يزن النواة .

وكان رحمه الله كثير التعظيم لشعائر الدين ، وكان مبغضًا للفلاسفة والمعطِّلة، ومن يُعاند الشريعة ، وإذا سمع عن معاند ملحد في مملكته كان يأمر بقتله . وكان قدس الله روحه حسن الظن بالله ، كثير الاعتماد عليه عظيم الإنابة إليه ، وكان إذا سمع أن العدو قد دهم المسلمين ، فكان يرى ساهرًا مهتمًّا مغتمًّا ساجدًا لله داعيًا في سجوده بهذا الدعاء : " إلهي قد انقطعت أسبابي الأرضية في نصرة دينك ، ولم يبق إلا الإخلاد إليك والاعتصام بحبلك ، والاعتماد على فضلك أنت حسبي ونعم الوكيل " .

ويقول القاضي بهاء الدين : ورأيتُه ساجدًا ودموعه تتقاطر على شيبته ثم على سجادته ولا أسمع ما يقول ، ولم ينقض ذلك اليوم إلا ويأتيه أخبار النصر على الأعداء .

لقد كان حبه للجهاد والشغف به قد استولى على قلبه ومشاعره وسائر جوانحه استيلاء عظيمًا وكان أبدًا يقصد بوقعاته الجُمَعَ سيما أوقات صلاة الجمعة تبركًا بدعاء الخطباء على المنابر ، فربما كانت أقرب إلى الإجابة) . اهـ بتصرف .

٢ – عدله ورحمته :

يقول القاضي بهاء الدين : (وكان رحمه الله على جانب كبير من العدل والرحمة والرأفة ونصرة الضعيف على القوي . . . وكان يجلس للعدل في كل يوم اثنين وخميس في مجلس عام يحضره الفقهاء والقضاة والعلماء ، ويفتح الباب للمتحاكمين حتى يصل إليه كل أحد من كبير وصغير وعجوز هرمة وشيخ كبير ، وكان يفعل ذلك سفرًا وحضرًا . . فما استغاث به أحد إلا وقف وسمع قضيته ، وكشف ظلامته واعتنى بقصته) .

ومما يدل على عدله أنه كان يقف بجانب خصمه أمام القضاء دون أن يرى في ذلك حرجًا أو غضاضة ؛ لأن الحق في نظره أحق أن يتَّبع ، وقد حدث أن ادعى تاجر يدعى (عمر الخلاطي) على صلاح الدين أنه أخذ منه أحد مماليكه ويدعى (سنقر) ، واستولى على ما كان لهذا المملوك من ثروة طائلة بدون وجه حق وعندما تقدم التاجر المدعي بظلامته إلى القاضي ابن شداد ، أظهر صلاح الدين حلمًا كبيرًا ورضي أن يقف موقف الخصم من صاحب الدعوى ، وأحضر كلٌّ من الطرفين مَن لديه من

شهود، وما لديه من أدلة يثبت بها رأيه ، حتى اتضح في النهاية – عند القاضي – كذب الرجل وادعاءه الباطل على صلاح الدين ومع كل هذا رفض صلاح الدين أن يترك المدعي يخرج من عنده خائبًا فأمر له بخلعة ومبلغ من المال ، ليدلل على كرمه في موضع المؤاخذة مع القدرة .

ومما يدل على عدله وسهره على مصالح الرعية إزالته بعض المكوس والضرائب تخفيفًا عن الناس ، ورفعًا للظلم عن كواهلهم .

وقد ذكر ابن جبير من مناقب صلاح الدين وآثاره التي أبقاها ذكرًا جميلًا للدين والدنيا (أنه أزال كثيرًا من المكوس والضرائب التي كانت مفروضة على الناس على كل ما يباع ويشترى مما دقَّ أو جلّ ، حتى كان يؤدى على شرب ماء النيل المكس) ، فألغى صلاح الدين هذا كله .

وقد كانت هناك ضريبة قدرها سبعة دنانير ونصف تفرض على كل حاج في طريقه إلى الحجاز لتعمير مكة والمدينة ومساعدة الناس هناك ، وقد اشتطَّ الفاطميون في جمع هذه الضرائب ، ومَن يعجز عن دفعها يعذب عذابًا أليمًا . . ولكن صلاح الدين ألغى ذلك المكس ، واستعاض عنه معونة مالية تعادل قيمة ما يؤخذ من الحجاج تدفع كل عام لأهل الحجاز ، ولذلك أراح الحجاج من عنت الجباة ، ولا سيما أن نسبة كبيرة منهم كانوا فقراء لا يستطيعون دفع ما يؤخذ منهم " فكفى اللّه المؤمنين على يدي هذا السلطان العادل حادثًا عظيمًا وخطبًا أليمًا " .

٣ – شجاعته وصبره :

أما شجاعته رحمه الله : فكانت مضرب المثل ، وقد شهد بها الأعداء قبل الأصدقاء، ولم يكن هذا البطل كأولئك الملوك والقادة الذين يتربعون على عرش الزعامة وليس لهم عمل سوى أن يصدروا الأوامر إلى أتباعهم ، ويقذفوهم إلى ساحات الوغى ، فإن أصابوا نصرًا فالذكر لهم ، وإن كانت الهزيمة والبلاء فهم في مراكز قيادتهم آمنون ، ولم يكن صلاح الدين من ذلك الصنف من الملوك والقادة ، وإنما كان

إذا أراد منازلة العدو تقدم الصفوف ، وخرج مع الجيش ليصحبه في ساحة القتال ، بل شاركهم مخاطر الحرب ، وثبت معهم في أحلك الظروف ، وأشدّ الأزمات . . .

ومن الأمثلة على هذه الشجاعة الفائقة التي تحلّى بها هذا البطل أنه بعد أن استولى على (حصن كوكب) سنة ٥٨٤ هـ ، سمح للعسكر المصري بالانصراف للراحة، وكان ذلك العسكر بقيادة أخيه (الملك العادل) ، فقرر صلاح الدين أن يودعهم حتى (عسقلان) ثم يتفقد البلاد الساحلية حتى (عكا) ، ولم يوافق المستشارون من صلاح الدين على تلك الخطة ؛ لأنه بعد أن يودع العسكر المصري في عسقلان سيبقى هو في عدد قليل من الجند ، فكيف يأمن على نفسه أن يتنقل من مدينة إلى أخرى من مدن الساحل ليتفقدها وهو دون جيش يحميه ، لا سيما وأن جموع الصليبيين كانت كبيرة في مدينة (صور) ، لذلك أشار مرافقوا صلاح الدين- ومنهم القاضي ابن شداد - أشاروا عليه ألا يفعل ذلك ، واعتبروا عمله "مخاطرة عظيمة " ، ولكنه أصرَّ على رأيه ، ومضى في طريقة إلى (عكا) بحذاء الساحل بعد أن صرف العسكر المصري دون أن يخاف عدوًّا أو يخشى خطرًا ، وكان الفصل شتاء، والبرد قارصًا والبحر هائجًا ، فنظر صلاح الدين إلى أمواج البحر الهادرة ، ثم التفت إلى القاضي ابن شداد وقال : " أما أحكي لك شيئًا في نفسي ؟ إنه متى يسر اللّه تعالى فتح بقية الساحل ، قسَّمتُ البلاد (بين أبنائه) ووصيت وودعت ، وركبتُ هذا البحر إلىجزائره ، وأتبعتهم (أي الصليبيين) فيها ، حتى لا أبقي على وجه الأرض من يكفر باللّه أو أموت ! ! . .) .

وكان رحمه الله رابط الجأش ، ثابت العزيمة لا تخور قواه إذا أحاطت به الشدائد ، أو نزلت في ساحته الأحداث . . ومن ذلك ما يرويه القاضي ابن شداد : (أنه حدث أثناء حصار الصليبيين لعكا أن وصل في البحر في ليلة واحدة أكثر من سبعين مركبًا صليبيًّا ، وهو يعدهم مركبًا بعد آخر من بعد صلاة العصر إلى غروب الشمس ، ومع ذلك فإن صلاح الدين كان لا يزداد إلا قوة نفس) .

يقول ابن شداد : (ما رأيته استكثر العدو أصلًا ، ولا استعظم أمرهم قط . .) وقد حدث في بعض المواقع التي دارت بين صلاح الدين والصليبيين في مرج عكا أن هُزم المسلمون وسقط عَلَمُهم على

الأرض ، ومع ذلك (ظل صلاح الدين ثابت القدم في نفرٍ يسير ، حتى انحاز إلى الجبل يجمع الناس ، ويردهم ويخجلهم حتى يرجعوا ، ولم يزل كذلك حتى انتصر عسكر المسلمين على العدو في ذلك اليوم) ، وقد حدث في ليلة ممطرة عاصفة ، وصلاح الدين يرابط على مرج عكا أن سقطت خيمته ، وكان من الممكن أن تقتله ، ومع ذلك لم يزده ذلك إلا رغبة في الجهاد ، وإصرارًا على القتال . . وهذا مما يدل دلالة واضحة على أن هذا البطل كان يحتفظ بروح معنوية عالية ، وثقة باللّه قوية ، وشجاعة في الحروب فائقة . . . ونترك الكلام للقاضي بهاء الدين ليعبر لنا عما لمسه في صلاح الدين من حب للجهاد ، وتضحية في سبيل اللّه ، يقول القاضي بهاء الدين : " لقد كان حبه للجهاد، والشغف به قد استولى على قلبه وسائر جوانحه استيلاءً عظيمًا ، بحيث ما كان له حديث إلا فيه ، ولا نظر إلا في آلته، ولا كان له اهتمام إلا برجاله ، ولا ميل إلا إلى من يذكره ويحث عليه ، لقد هجر في محبة الجهاد في سبيل اللّه أهله وأولاده ووطنه ، وسائر بلاده ، وقنع من الدنيا بالسكون في ظل خيمة تهب بها الرياح ميمنة وميسرة " .

وقد حدث أكثر من مرة أن قاد صلاح الدين جيوشه وهو مريض ، وأخذ ينظم جيوشه ويقاتل أعداءه وهو يعاني آلام المرض ، وابن شداد يتعجب من ذلك فيرد عليه صلاح الدين قائلاً : " إذا ركبت يزول عني ألمها " .

ومما يدل على صبره واحتسابه هذا الحادث الذي رواه ابن شداد في كتابه ، هذا الحادث يتلخص في أن صلاح الدين كان له ابن اسمه (إسماعيل) ، فجاءه خبر وفاته فتجلّد وصبر واحتسب ولم يحدث أحدًا ، ولم يظهر عليه شيء من الألم سوى دمعة ذرفت من عينيه ، يقول ابن شداد: " فانظر إلى هذا الصبر والاحتساب ، وإلى أي غاية بلغ هذا الرجل ، اللهم إنك ألهمته الصبر والاحتساب ، ووفقته له ، فلا تحرمه ثوابه يا أرحم الراحمين " [1] .

---

[1] هذه المقتطفات من كتاب النوادر السلطانية لابن شداد ص ٥٠ .

٤ – حلمه وعفوه :

ومن الأخلاق الكريمة التي تحلى بها هذا البطل خلق الحلم والعفو ، فكثيرًا ما يقابل الإساءة بالإحسان ، والغلظة بالحلم .

من ذلك ما يرويه ابن شداد من أن الناس كانوا يتزاحمون على صلاح الدين لعرض شكاويهم ، وربما داسوا على أطراف ثيابه ، والمفرش الذي يجلس عليه بأقدامهم وهو لا يتأثر لذلك ، وينظر في شكاويهم ، ويمضي في قضاء حاجاتهم في أناة وحلم ، وقد كان يحدث أن بعض المستغيثين والمتظلمين يغلظون له القول ، ويستعلون عليه بالكلام، فيتقبل قولهم بالبشر والقبول .

وفي ذات يوم مر عليه القاضي ابن شداد وهو مُمْتطٍ بغلته ، وكان اليوم مطيرًا كثير الوحل ، فنضحت البغلة عليه من الطين حتى أتلفت جميع ماكان يرتديه من ملابس، ومع ذلك رفض أن يسمح لابن شداد بالانزواء خجلًا ، وابتسم وقربه منه حتى يزيل ما في نفسه من خجل وألم .

وثمة قصة يرويها ابن شداد – وهو شاهد عيان فيها – ليستشهد بها على حلم صلاح الدين وعفوه ، فيذكر أنه حدث أثناء الصراع بين صلاح الدين " وريتشارد " حول يافا أن عصى بعض عساكر صلاح الدين الأوامر الصادرة منه إليهم ، وأجابوه "بكلام فيه خشونة " ، فتركهم صلاح الدين وانصرف كالمغضب حتى خيل لمن رآه أنه قتل جماعة من العساكر في ذلك لما أتوه من أعمال وأقوال ، ولم يزل صلاح الدين سائرًا حتى وصل إلى قيادته وحوله الأمراء يرعدون خيفة ، وكل منهم يعتقد أنه مسخوط عليه ، حتى ابن شداد مع عظم مكانته عند صلاح الدين ، يقول ابن شداد : "لم تحدثني نفسي بالدخول عليه خيفة منه حتى استدعاني " ، فلما دخل ابن شداد على صلاح الدين طلب منه أن يجمع الأمراء ليشاركوه في أكل كمية من الفاكهة كانت قد وصلته من دمشق ، فحضر الأمراء وهم خائفون ، فوجدوا من بشره وانبساطه ما أحدث لهم الطمأنينة والأمن والسرور ، وانصرفوا على عزم الرحيل للقتال كأن لم يحدث شيء أصلًا . ومما كتب المؤرخون في الحلم أن رجلًا تقدم إليه – وهو تعب ضجر – بإحدى الشكاوي ، فطلب منه صلاح الدين أن ينتظر قليلًا ويؤخر شكواه غير أن الرجل لم يشأ الانتظار ، وطفق

يقرأ شكواه على مسمع من صلاح الدين ، وأدنى الشكوى من بصره فقال له صلاح الدين : إن الدواة غير موجودة هنا حتى أوقع لك هذه الشكوى ، فما كان من الرجل إلا أن أسرع بإحضار الدواة وقربها من صلاح الدين وطلب منه التوقيع ، فلم تَثُر ثائرتُه ، ولم يدركه الغضب ، بل تمسك بأهداب الحلم والعفو ، وحمل قلمه ووقع على شكوى الرجل .

ولم يكن حلمه رحمه الله قاصرًا على أتباعه ورعيته وجنده ، وإنما تعدى ذلك إلى الأعداء الذين كانوا يحاربونه ويحاربهم ، وقد أفضنا في سرد الأمثلة عن هذا العفو ، وتلك السماحة . . في (الفصل السابع) من هذا الكتاب حين تطرقنا لبحث (سياسة صلاح الدين في معاملته مع الصليبيين) ، فارجع إليه تجد ما يُروي الظمأ ويشفي الغليل .

٥ – مروءته وسماحته :

أما عن المروءة والسماحة التي تحلَّى بهما صلاح الدين فقد أجمع المؤرخون قديمًا وحديثًا أن المعاملة الحسنة التي عامل بها صلاح الدين أعداءه لم يسبقه بها أحد في تاريخ الحروب والفتوحات ، وإليكم شهادة المؤرخين الغربيين في سماحة هذا البطل ومروءته النادرة في التاريخ .

يروي (الأمير علي) عن (مل) المؤرخ الإنكليزي قوله : " ذهب عدد من المسيحيين الذين غادروا القدس إلى إنطاكية المسيحية ، فلم يكن نصيبهم من أميرها إلا أن أبى عليهم أن يضيفهم ، فطردهم ، فساروا على وجوههم في بلاد المسلمين فقوبلوا بكل ترحاب " .

ويقول (الأمير علي) أيضًا : " لقد وصف (ميشود) حال أولئك الذين طردوا من القدس ، وما لاقَوْه من إخوانهم المسيحيين من عدم احترام الإنسانية ، فقد تضوَّر عدد منهم جوعًا في سوريا ، وهم على أشد ما يكونون من البؤس ، وقد أغلقت طرابلس أبوابها في وجوههم – ثم قال ميشود – : وقد اضطرت إحدى السيدات أن تلقي بولدها في اليمِّ وهي تلعن أولئك المسيحيين الذين أَبَوْا أن يضيِّفوها أو يُؤووها " ، " وقيل للسلطان صلاح الدين ، والبطرك خارج بأمواله وذخائره ، وكانت كثيرةً جدًّا لم يصرفها في فداء الفقراء والمساكين ، بعد أن وصف – ستانلي – البطرك بأنه كان من غير ضمير

ولا وجدان ، وقيل للسلطان : لِمِ لم تصادر هذا فيما يحمل ، وتستعمله فيما تُقَوِّي به أمر المسلمين ؟ فقال لهم السلطان : لا آخذ منه غير العشرة الدنانير ، ولا أغدر به " ؛ وفي ذلك يقول (ستانلي لين بول): " قد وصل الأمر إلى أن سلطانًا مسلمًا يلقي على راهب مسيحي درسًا في معنى البر والإحسان " .

ويروي القاضي ابن شداد أنه كان راكبًا ذات يوم في صحبة صلاح الدين على مقربة من خطوط الصليبيين فإذا بأحد الجنود المسلمين يحضر امرأة صليبية تبكي في حُرقةٍ وتدق على صدرها دقًّا متواصلًا ، فلما سأل صلاح الدين عن قضيتها عرف أن ابنتها الصغيرة فقدت منها ، وعندئذ " رق ودمعت عينه ، وحركته المروءة ، وأمر مَن ذهب إلى سوق العسكر يسأل عن الصغيرة من اشتراها ويدفع له ثمنها ويحضرها " . وهكذا لم تكد تمضي ساعة حتى أحضروا الطفلة الصغيرة ، فجرت الأم نحو طفلتها لرؤيتها ، وأخذت " تعفِّر وجهها في التراب ، والناس يبكون على ما نالها ، وهي ترفع طرفها إلى السماء ، ولا تعلم ما تقول ، فسلمت ابنتها إليها وحملت حتى أعيدت إلى معسكرها " .

ويروي القاضي ابن شداد هذه القصة الرائعة التي تنبىء عن تسامحه الكبير ومروءته النادرة يقول ابن شداد : " لما مرض الملك الإنكليزي ريتشارد قلب الأسد – أكبر خصوم صلاح الدين – بعث إليه صلاح الدين ورقَّه عنه بأن أرسل إليه الفواكه والثلج " وكان الصليبيون يعجبون من هذا التسامح الكريم الصادر عن أعدائهم المسلمين نحوهم، ومن هذه الرحمة التي يبديها المسلمون نحو الصليبيين الذين مسهم الجوع ، وأقعدهم العجز ، وأصابهم البلاء . . والمجمع عليه لدى المؤرخين أن صلاح الدين لم يستغل هذا العجز لإكراههم على الدخول في الإسلام ، ويقول (أرنولد) في كتابه " الدعوة إلى الإسلام " : " لقد كانت هذه المعاملة الرحيمة سببًا في التجاء الكثير من الصليبيين إلى الإسلام ، والدخول في الإسلام " .

وإذا أردنا أن نوازن بين التعصب الصليبي الحاقد على الإسلام والمسلمين ، وبين التسامح الإسلامي الصافي على المسيحية والمسيحيين ؛ وجدنا الفرق بينهما واضحًا والبون شاسعًا . . وذلك لأن الصليبيين لما هاجموا العالم الإسلامي كانوا مشبعين بروح التعصب المقيت ، والحقد الأسود ، لا يصدهم

عن التنكيل بالمخالفين لهم في الدين أي رادع من رحمة أو ضمير أو إنسانية . . وكانوا يعتدون على أي شخص تمكنوا منه، كبيرًا أو صغيرًا ، رجلًا كان أو أمراة ، سواء كانوا مقاتلين أو مسالمين .

وقد بدأ تعصب الصليبيين المقيت ، وقساوتهم البالغة في مذبحة المسجد الأقصى التي قتلوا فيها ما زيد عن السبعين ألفًا ممن التجأ إليهم من العجزة والأطفال والنساء من المسلمين المسالمين . . وبعكس ذلك كان موقف صلاح الدين عندما استرجع بيت المقدس ، فقد منع الاعتداء على كل صليبي بعد أن استسلمت الحامية الصليبية ومنحها الأمان ، وخرج جميع الصليبيين من بيت المقدس محروسين بالجند الإسلامي حتى وصلوا آمنين إلى مدينة صور .

* * *

وقد فصلنا القول في هذا التسامح حين تكلمنا في الفصل السابع (عن سياسة صلاح الدين في معاملة الصليبيين) فارجع إليه لتعلم الفرق العظيم بين تسامحنا وتعصبهم [1] .

النقد الذي وجه إلى صلاح الدين :

يثير بعض المؤرخين المعاصرين النقد الشديد على سياسة صلاح الدين في معاملته الرحيمة للصليبيين ، وفي تسامحه المفرط لأعداء الإسلام والمسلمين .

وهذا النقد يتلخص في الأمور التالية :

١ – كان على صلاح الدين أن يعامل الصليبيين بالمثل ، كما قتلوا أسرانا ونكّلوا بهم، كان عليه أن يقتل أسراهم ويستأصل شأفتهم من الأرض ، تحقيقًا لمبدأ المعاملة بالمثل ﴿ وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ (الشورى : ٤٠) ﴿ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ (البقرة : ١٩٤) .

---

[1] انظر عن أثر التسامح الإسلامي في انتشار الإسلام بين الصليبيين في كتاب " الدعوة إلى الإسلام " من ص٨٠ تأليف " ت ـ و ـ أرنولد " ترجمة حسن إبراهيم ، وعبد الحميد عابدين .

٢ – السماح للأسرى أن يجتمعوا ويتمركزوا في مدينة (صور) ، وهذا مما شجعهم أن يشنوا على صلاح الدين حربًا صليبية ثالثة اعتمادًا على تجمعهم وعلى الإمدادات التي تَرِدُ إليهم من أوربا ، وكان من نتيجتها تسليم (عكا) للصليبيين .

٣ – أوقعت هذه الاضطرابات التي تلت معركة حطين البلاد الإسلامية في بلبة كبيرة ، وجرَّت على صلاح الدين متاعب كثيرة ، وأوقعت الدولة الإسلامية في خسائر فادحة ، وحالت دون المدِّ الإسلامي في الشرق والغرب .

هذه أهم الانتقادات التي وجهها مؤرخو العصر إلى البطل الفاتح صلاح الدين . ولكن الكثير من المؤرخين يدافعوان عن صلاح الدين ، ويبررون عمله ، ويردُّون على كل نقد وُجّه إليه ؛ لأن تسامحه الذي اتصف به ، ومعاملته الرحيمة التي تميز بها كانت مبنية على أسس إسلامية ، وقواعد شرعية . . فما دام الإسلام خيَّر ولاة الأمور بين المنّ والفداء والقتل والاسترقاق في معاملة الأسرى . فلصلاح الدين أن يختار ما شاء بما يحقق المصلحة للإسلام والمسلمين تحقيقاً لقوله تعالى : ﴿ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاء حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾ (محمد : ٤) .

علمًا بأن صلاح الدين (أمر بفريق من الأسرى يبلغ عدده ٢٠٠ فقتلوا لأنهم كانوا رؤوس الشر ، ومثيري الفتن ، وكانوا دائمًا يعملون على الإيقاع بالمسلمين ، بل كانوا لا يوفون بعهد ولا ميثاق ، وأنهم هم الذين كانت تنقاد إليهم العامة ، وأنهم الفئة التي كانت تُعادي المسلمين ، وتبالغ في إيذائهم والتنكيل بهم أشد المبالغة من طريق التعصب الديني . .) [1] .

وسبق أنْ ذكرنا أنَّ صلاح الدين بعد أن انتصر على الصليبيين في حطين أحضر الأسير (أرناط) صاحب الكرك وضرب عنقه بيده تنفيذاً لوعده وبرًّا بقسمه ولسوء معاملته للمسلمين ، وتطاوله على مقام النبوّة . .

[1] عن كتاب (حياة صلاح الدين) لأحمد بيلي ص ١٦٢ ، بتصرف .

ومن هذه الشواهد التي سقناها يتبين لنا أن هذا البطل كان حازمًا في موطن الحزم ، ومتسامحًا في موطن التسامح ، وما أحسن ما قاله أحد الشعراء :

ووضع الندى في موضع السيف بالعلا مضرٌّ كموضع السيف في موضع الندى

أما أن صلاح الدين قد سمح للأسرى في أن يقيموا في (صور) ، ويتمركزوا فيها . . . فالحقيقة أن صلاح الدين لم يأذن بهذا إلا بعد أن أخذ عليهم العهود والمواثيق في أن يحافظوا على العهد ، وألا يرجعوا إلى الحرب ، وألا يحدثوا ما يخلُّ بالسلام ، ولكن القوم نقضوا عهودهم ، وأخلوا بوعودهم ، وأخفروا كل ذمة أعطوها للسلطان صلاح الدين ، وربما كان بحسبان هذا البطل المتسامح أن أولئك الصليبيين سيقدرون هذا العرفان ، ويحفظون هذا الجميل ، ويعيشون مع المسلمين بكل استقرار وسلام ، ولكن كما يقول الشاعر :

ما كل ما يتمنَّى المرء يدركه تجرى الرياح بما لا تشتهي السفُنُ

وإن كان من الأفضل والأحوط في حق صلاح الدين أن يوزع هؤلاء الأسرى على البلاد الإسلامية هنا وهناك حتى يتبدَّد شملهم ، ويتفرق جمعهم ، وحتى يكونوا في الوقت نفسه تحت نظر المسلمين ، ورقابتهم المستمرة .

أما أن تسامح صلاح الدين قد أوقع البلاد في اضطرابات ، وجرَّ عليها خسائر ومتاعب . . فللحقيقة نقول : إن صلاح الدين بنى تسامحه – كما ذكرنا – على أسس إسلامية ، وكان مصيبًا فيما فعل ، وهل عنده علم الغيب في أن أوربا ستشن هجومًا كبيرًا بمعاونة أولئك المتمركزين في (صور) على بيت المقدس في حرب صليبية ثالثة ؟ ولو كان يعلم الغيب لا ستكثر من الخير ، وأخذ بالأهبة الكاملة ، وصدق من قال :

ما مضى فات والمؤمل غيب ولك الساعة التي أنت فيها

وختامًا فنحن لا ندعي العصمة له ما دام من البشر ، وكما يقول الإمام مالك : "ما منا إلا مَن رَدَّ ورُدَّ عليه ، إلا صاحب هذا القبر " ، وأشار إلى قبر النبي ﷺ ، والمجتهد إذا أخطأ له أجر واحد ، وإذا

أصاب له أجران ، وصلاح الدين مأجور على كل الأحوال، سواء أخطأ أو أصاب رحمه الله وأجزل مثوبته .

٦ – حبه للشعر والأدب :

كان صلاح الدين رحمه الله رجلًا متكامل الشخصية ، فكما أنه يحب الجهاد ويكرس أكثر وقته له فإنه كذلك لم ينس نصيبه من الدنيا بالقدر الذي لا يقعده عن واجب القتال لإعلاء كلمة اللّه ، من ذلك ما يذكره ابن شداد عن صلاح الدين أنه كان " حسن العشرة ، لطيف الأخلاق ، طيب الفكاهة ، حافظًا لأنساب العرب ووقائعهم ، عارفًا بسيرهم وأحوالهم ، حافظًا لأنساب خيلهم ، عالمًا عجائب الدنيا ونوادرها . . " .

ومن هذه الجوانب التي تنبئ عن شخصيته الفذة ، وتكشف عن عقله الكبير ؛ استحسانه للأشعار الجيدة ، وترديدها في مجالسه ؛ فقد ذكر ابن خلكان في تاريخه : أن صلاح الدين كان يستحسن الأشعار الجيدة ، ويتردد إليه الشعراء لينشدوه إنتاجهم ، وإنه كثيرًا ما كان يردد قول الشاعر :

وزارني طيفُ مَن أهوى على حذرٍ ... من الوشاة وداعي الصبح قد هَتَفَا

فكدتُ أوقظ مَن حولي به فرحًا ... وكاد يُهتَكُ ستر الحبّ بي شَغَفَا

ثم انتبهتُ وآمالي تخيّلُ لي ... نيل المنى فاستحالت غبطتي أسَفَا

وذكر صاحب وفيات الأعيان أنه كان يعجبه قول ابن المنجم في خضاب الشيب وهو :

وما خضب الناسُ البياض لقُبحه ... وأقبحُ منه حين يظهر ناصله [1]

ولكنه مات الشباب فسُودتْ ... على الرسم من حزنٍ عليه منازله

[1] أي حين يخرج من الخضاب .

وذكر العماد الكاتب أن السلطان صلاح الدين في أول ملكه كتب إلى بعض أصحابه هذين البيتين :

أيها الغائبون عنا وإن كنْـ تُمْ لقلبي بذكركم جيرانا

إنني مُذْ فقدتُكم لا أراكم بعيون الضمير عندي عِيانا

وذكر صاحب الروضتين : " أن صلاح الدين كان مغرمًا بديوان أسامة ابن منقذ ، وكان له محفوظ كبير من الشعر يردده في مناسباته ، وكان كتاب الحماسة من حفظه، قالوا : لما مات (توران شاه) أخو صلاح الدين، ووصل الخبر بذلك إلى السلطان ، حزن عليه حزنًا شديدًا وجعل يكثر إنشاد أبيات المراثي ، وكأنه يعبر بهذا الشعر المحفوظ عن أحزانه " .

وكان يضمِّن رسائله الشعر قال العماد : " وكثرت كتب صلاح الدين إلى أصدقائه، مبشرة بطيب أنبائه ، فمنها كتاب ضمنه هذا البيت " :

ما كنتُ بالمنظور أقنع منكُم ولقد رضيت اليوم بالمسموع

ويذكر العماد الكاتب " أن صلاح الدين كان مغرمًا بالأدب ومحبًّا لأهله ، كما كان يعقد المجالس للاستماع إلى ما يقوله الشعراء ، كهذا المجلس الذي عقده بعد أن فتح بيت المقدس ، واستمع فيه إلى ما قاله الشعراء في هذا الفتح المبين " ، ولقد مر بنا بعض القصائد من هذا الشعر حين تكلمنا في الفصل السابع عن النصر الأكبر الذي أحرزه البطل صلاح الدين في معركة حطين .

وكان له رحمه الله ذوق أدبي ينقد به ما يعرض عليه من الشعر ؛ كتب نشو الدولة أحمد بن نفادة أبياتًا يدعو بها العماد إلى دمشق ، "وقد دخل أوان المشمش المعهود ، وهو موسم دمشق المشهود " أولها :

دعا الناس للذَّات مشمشُ جِلَّقِ فقد أَسرعوا من كل غربٍ ومشرق

قال العماد : فعرضت أبياته على السلطان ، قال السلطان للعماد : فما قلت في جواب هذه الأبيات ؟ فأنشدته ما قلت :

هلمُّوا نسابِقْ نحو مشمش جلِّق وثَمَّ كما نهوى على الأكل نلتقي

بدت بين أوراق الغصون كأنها كُراتُ نُضارٍ [١] في لُجينٍ مطرق [٢]

قال العماد : فلما أنشدتُ السلطان هذا البيت ، قال : تشبيه الورق باللجين غير موافق فإن الورق أخضر ، واللجين أبيض ، فقلت بعد تعديل :

بدتْ بين أوراق الغصون كأنها (كُراتُ نُضارٍ بالزمرُّد مُحدق)

فغير الشاعر المشبه به ليطابق المشبه ؛ لأن نقد السلطان كان في موضعه .

٧ – زهده وكرمه :

كان رحمه الله العَزوف عن الدنيا ومباهجها ، وزينتها وطيباتها ، بنى له أتباعه مرةً منزلًا أنيقًا في دمشق فلم يكترث به ، ولم ينظر إليه طويلًا بل قال : " ما كنا لنجلس في هذا المكان إلى الأبد ، فهذا المنزل لا يصلح لمن يطلب الموت، وما نحن هنا إلا لنقوم بخدمة الله سبحانه " [٣] .

لم تفتنه أموال ملكه الواسع ، ولم تغرَّه أبهة الملك ، وعظمة السلطة ، فمن أقواله : " إن المال والتراب سيان عندي " **ومما يدل على زهده في الدنيا، وعزوفه عن مباهج الحياة** : أنه حين توفي لم يجد الناس لديه مالًا ، ولم يخلف ضيعة ، ولا قصرًا ، وسبق أن ذكرنا حين تكلمنا عن تقواه وعبادته في هذا الفصل أن قاضيه بهاء الدين المعروف بابن شداد لما تكلم عن عقيدته وتعبده ذكر من جملة ما ذكر " . . . **وأما الزكاة** : فإنه مات ولم يحفظ ما تجب به الزكاة " .

وأما صدقة النفل : فإنها استغرقت جميع ما ملكه من الأموال، فإنه ملك ما ملك ، ولم يخلّف في خزانته من الذهب والفضة إلا سبعة وأربعين درهمًا ناصرية ، وجُرمًا واحدًا ذهبًا ، ولم يخلف ملكًا ولا دارًا ولا عقارًا ولا بستانًا ولا قرية ولا مزرعة ، ولا شيئًا من أنواع الأملاك . . . فهل رأيتم في تاريخ

---

[١] النضار : الذهب .

[٢] اللجين : الفضة .

[٣] عن كتاب " حياة صلاح الدين " لأحمد بيلي ص ٢١٤ .

السلاطين ، والزعماء عظيمًا زاهدًا كمثل هذا السلطان العظيم ؟ . إنه الرجل الفذ في التاريخ ، إنه القائد الذي باع دنياه بآخرته واستعاض عن العاجلة بالآجلة ، وما عند اللّه خير مما يجمعون .

أما كرمه وجوده رحمه الله : فكان في الذروة ، (فكان لا يرد سائلًا ، ولا يصد نائلًا ، ولا يخجل قائلًا ، ولا يخيب آملًا) ، يقول ابن شداد : " إنه اجتمع عنده جمع من الوفود بالقدس الشريف ، وكان قد عزم على التوجه إلى دمشق ، ولم يكن في الخزانة ما يعطي الوفود ، فلم أزل أخاطبه في معناهم حتى باع أشياء من بيت المال، وفضضنا ثمنها عليهم ، ولم يفضل منه درهم واحد .

ويقول ابن شداد : " كان رحمه الله يعطي في وقت الضيق كما يعطي في حال السعة، وكان نواب خزائنه يخفون عنه شيئًا من المال خوف أن يفاجئهم مهم من الأمور " ، ويستطرد قائلًا : " إنه سمعه قال فى معرض حديث جرى : يمكن أن يكون فى الناس من ينظر إلى المال كما ينظر إلى التراب ، فكأنه أراد بذلك نفسه رحمه الله . . . " .

وكان رحمه الله يكرم كل من يفد إليه من أرباب العلم وذوي الأقدار . . ويوحي إلى رجاله ألا يُغفلوا عمن يجتاز بالخيام من رجال العلم والتصوف . وقد مر به رجل مرة يجمع بين العلم والتصوف ، وانصرف بعد لقاء الناصر صلاح الدين ، ومضى على ذلك ليالٍ ، وسأل السلطان عنه فعلم أنه مسافر، فظهر على وجهه أمارات العتاب ، وقال : كيف يتركنا هذا الرجل وينصرف عنا من غير إحسان يمسه منا ؟ وشدد النكير على ذلك ، فكتب إليه كاتبه كتابًا عنه ، وكان كاتبه على معرفة به ، فطلب منه الرجوع لمقابلة السلطان ، فحضر الرجل واجتمع بصلاح الدين الذي رحب به وانبسط معه في الحديث ، وأبقاه في ضيافته أيامًا ، ثم خلع عليه خلعه حسنة وأعطاه دابة يركبها ، وثيابًا كثيرة ليحملها إلى أهل بيته وجيرانه ، وبعض المال ، فانصرف الرجل عنه وهو في غاية السرور والانبساط . .

وكان عندما يعلم بورود أموال إليه يجود بأضعافها على المحتاجين والمجاهدين قبل أن تصل إليه ، وما عُقر في سبيل اللّه فرس أو جرح إلا وعوَّض صاحبه مثله ، وزاده من فضله فضلةً ، ولم يكن له فرس يركبه إلا وقد وهبه أو وعد أن يهبه إلى أحد رجاله ، وكان عدد ما وهب من الأفراس في عكا فقط

يزيد على عشرة آلاف فرس . وكان لا يرتدي إلا ما يحمل في عينيه من ملابس الكتان والقطن والصوف ، حتى إذا وجد محتاجًا تبرع بها إليه) [1] .

ولعل الدافع إلى هذا البذل والعطاء بدون حساب أنه كان يعتبر نفسه جنديًّا من جنود الإسلام ، مدعوًّا إلى معارك يخوضها مع الأعداء ، فهو لا يدري هل يعود ؟ وإذا كان لا يعلم هل يعود ، فلماذا تبقى هذه الأموال ولم توزع على أهل الحاجة والاستحقاق ؟ . وهناك أمر آخر ذكرنا طرفًا منه في أول هذا البحث نحن بصدده ، وهو أن هذا السلطان البطل لم يكن من هؤلاء الذين تستهويهم زينة الدنيا ومباهجها ، ولم يكن يقعد في قصره ثم ينصب لقواده الرايات ، ويرسل البعوث وهو رافل بين خدمه وحشمه ، ولم يكن يصدر الأوامر وهو يتيه في عظمة الملك وأبهة السلطان ، وإنما كان فارسًا مقدامًا ، وبطلًا شجاعًا : قضى أكثر عمره على متن جواده ، وإذا أراد الراحة تمدد فوق الرمال ، واستظل تحت الخيام . . لا ترقد عينه ولا تستريح نفسه . . حتى يرى المسلمون في العزة يرفلون وعلى سلم الأمجاد والوحدة والقوة يصعدون . . فهل يلام هذا البطل بما ينفق من أموال ، وما يتصف به من بذل وسخاء ؟ .

٨ – حركته واهتمامه بأمر الجهاد :

أما حبه للجهاد وشغفه به واهتمامه له : فكان على جانب كبير من الحب والشغف والاهتمام بالجهاد ، فكان لا يرقد له جفن ، ولا يستريح له بال ، ولا يطيب له طعام . . حتى يرى بلاد الإسلام قد تحررت من ربقة الصليبية الحاقدة، وانتصرت على كل مستبد ، وطاغيه جبار . . ولكي نعرف جليًّا مبلغ اهتمامه ، وقدر مسؤوليته في أمر الجهاد والتحرير . فلنستمع إلى ما يقوله مرافقوه ، وما كتب عنه الذين شاهدوه . . يقول ابن شداد : "كان رحمه الله عنده من أمر القدس أمر عظيم لا تحمله الجبال" وقال : " وهو كالوالدة الثكلى ، يجول بنفسه من طلب إلى طلب ، ويحث الناس على الجهاد ، ويطوف بين الأطلاب بنفسه وينادي : يا للإسلام ، وعيناه تذرفان بالدموع ، وكلما نظر إلى عكا ، وما حل بها

---

[1] عن كتاب " صلاح الدين الأيوبي " للدكتور جمال الدين الرمادي ص ٩٦ من كتاب الشعب مع شيء من التصرف .

من البلاء ، وما يجري على ساكنيها من المصاب العظيم ، اشتد في الزحف ، والحث على القتال ، ولم يطعم في ذلك اليوم طعامًا البتة ، وإنما شرب أقداح دواء كان يشير بها الطبيب " .

ومما قاله كذلك : " والسلطان يوالي هذه الأمور بنفسه ، ويكافحها بذاته ، ولا يتخلف عن مقام من هذه المقامات ، وهو من شدَّة حرصه ، ووفور همته كالوالدة الثكلى، ولقد أخبرني بعض أطبائه أنه بقي من يوم الجمعة إلى يوم الأحد لم يتناول من الغذاء إلا شيئًا يسيرًا لفرط اهتمامه " :

اللّه أكبر ! هكذا فليكن الاهتمام بشأن الجهاد . . . اللّه أكبر ! هكذا فلتكن التضحية في سبيل اللّه . . اللّه أكبر ! . . هكذا فلتكن الانطلاقة لأجل التحرير والوقوف لقضية الإسلام لو لم يكن لصلاح الدين سوى هذه المواقف لكفته فخرًا وشرفًا وخلودًا . . ويستطرد ابن شداد في وصف اهتمامه بأمر الجهاد قائلًا : " ولقد كان رحمه الله حبه للجهاد والشغف به قد استولى على قلبه وسائر جوانحه استيلاء عظيمًا بحيث ما كان له حديث إلا فيه ، ولا نظر إلا في آلته ، ولا كان له اهتمام إلا برجاله ، ولا ميل إلا إلى مَن يذكره ويحث عليه ، ولقد هجر في محبة الجهاد في سبيل اللّه أهله وأولاده ووطنه وسكنه وسائر بلاده ، وقنع من الدنيا بالسكون في ظل خيمة تهب بها الرياح ميمنة وميسرة ، ولقد وقعت عليه في ليلة ريحية على مرج عكا ، فلو لم يكن في البرج لقتلته ولا يزيده ذلك إلا رغبة ومصابرة واهتمامًا . . " .

ومما يدل على جهاده المتواصل ، وحركته الدائمة ، واندفاعه الكامل لإعلاء كلمة اللّه أنه قال مرة للقاضي ابن شداد وهو يركب البحر : " أما أحكي لك شيئًا من نفسي ؟ أنه متى يسر اللّه تعالى فتح بقية الساحل ، قسمت البلاد ، وأوصيت وودعت ، وركبت هذا البحر إلى جزائره ، واتَّبعتهم فيها حتى لا أبقي على وجه الأرض من يكفر باللّه أو أموت . . . ثم قلت – أي ابن شداد – : ما هذه إلا نية جميلة ولكن المولى يسيِّر في البحر العساكر وهو سور الإسلام ومنعته ، فلا ينبغي له أن يخاطر بنفسه ، فقال : أنا استفتيك : ما أشرف الميتتين ؟ فقلت : الموت في سبيل اللّه ، فقال : غاية ما في الباب أن

أموت أشرف الميتتين ، فانظر إلى هذه الطوية ما أطهرها ، وإلى هذه النفس ما أشجعها وأجرأها رحمة اللّه عليه ، اللهم إنك تعلم أنه بذل جهده في نصر : دينك ، وجاهد رجاء رحمتك ، فارحمه " [1] .

تلكم أهم الصفات النبيلة ، والخصال الكريمة التي تحَلَّى بها البطل الخالد صلاح الدين، وما أحوج قادتنا اليوم إلى مثل هذه الصفات ، وإلى المزيد من هذه الخصال ، عسى أن ينهضوا بأمتهم إلى المستوى اللائق من المسؤولية في بناء دولة الإسلام ، وعسى أن يصلوا إلى النصر في معاركنا القادمة مع إسرائيل ، وعسى أن يستعيدوا ما ذوى لهذه الأمة من عز ، وما اندثر لها من مجد وليس ذلك على اللّه بعزيز .

ما أحوج الأمة الإسلامية اليوم إلى بطل كصلاح الدين في عبادته وتقواه، وفي عدله ورحمته ، وفي شجاعته وصبره ، وفي حلمه وعفوه ، وفي مروءته وسماحته ، وفي زهده وكرمه وفي حركته وجهاده . . ويوم تكتمل هذه الصفات في حاكم مسؤول أو قائد بطل . . فليرتقب المسلمون النصر الأكبر ، والعزة المنيعة ، والدولة الإسلامية العتيدة .

لا هُمَّ قد أصبحت أهواؤنا شيعًا فامنن علينا براعٍ أنت ترضاه
راع يعيد إلى الإسلام سيرته يرعى بنيه وعين اللّه ترعاه

* * *

[1] من كتاب (النوادر السلطانية) للقاضي ابن شداد ص ١٨ .

الفصل الثاني عشر

أهم الإصلاحات التي حققها صلاح الدين

قد علمنا من الفصول السابقة أن السلطان صلاح الدين قد قضى معظم وقته ، وجلَّ حياته في حروب طاحنة ، ومعارك مستمرة بينه وبين الصليبيين. وهذه الحروب – ولا شك – حالت بينه وبين ما يدور في خلده من مشاريع كبرى ، وإصلاحات شاملة ، على أنه رغم هذا قام بأعمال عمرانية ، وحقق مشاريع إصلاحية ، يذكرها له التاريخ بملء الافتخار والإعجاب .

وإذا كنا في هذا الفصل بصدد تعداد هذه الإصلاحات ، وتبيان تلك المشاريع فلنذكر أميزها وأهمها لتكون كتابتنا عن هذا البطل كتابة شاملة ، وإحاطتنا بأخباره إحاطة مستوفية ، عسى أن نكون قد أنصفناه ، وأدينا ما علينا له من واجب وحق . .

ويمكن أن نحصر أهم هذه الإصلاحات في الأمور التالية :

١ – الإصلاح العمراني :

من هذه الإصلاحات أنه اهتم بسور القاهرة ، فلما كان قد تهدم أكثره ، وصار طريقًا لا يرد داخلًا ولا خارجًا ، فقد سوَّرها ، وانتدب للإشراف على عمارة السور (الطواشي بهاء الدين قراقوش) ، " وقياس هذا السور من أوله إلى آخره تسعة وعشرون ألف ذراع وثلاث مائة وذراعان " ، وهذا السور يمتد حول المدن الأربعة التي كونت مدينة (القاهرة) في عهده ، هي : مدينة (الفسطاط) التى أنشأها عمرو بن العاص ، ومدينة (العسكر) التي أنشأها صالح بن علي العباسي ، ومدينة (القاهرة) التي أنشأها جوهر الصقلي .

والهدف من إقامة هذا السور حماية البلاد من كيد المعتدين ، وبالإضافة إلى بناء السور بنى قلعة الجبل ليرد عن القاهرة غائلة الأعداء الغادرين غير أنه لم يستطع أن يكمل البناء جميعًا لانشغاله بالحروب

في شتى الميادين ، وتعد هذه القلعة من الآثار الحصينة في تاريخ مصر ، وقد تناولتها يد التغيير في فترات عديدة من التاريخ .

ومن القلاع التي بناها صلاح الدين قلعة سيناء التي بناها في شبه جزيرة سيناء على بعد ٥٧ كيلو مترًا إلى الشمال الشرقي من مدينة السويس ، كما بنى في الجهة الجنوبية من القلعة مسجدين متجاورين ، وصهريجًا للمياه لِيُروى العطاش ، وعلى أحد بابي الصهريج كتبت هذه العبارة : "بسم اللّه الرحمن الرحيم ، وصلى الله على سيدنا محمد ، خلد اللّه ملك مولانا الناصر صلاح الدنيا والدين ، ملك الإسلام والمسلمين ، خليفة أمير المؤمنين ، عَمَّرَ هذا الصهريج الملك علي بن الناصر العادل المظفر ، وكان فراغه شهر شعبان تسعين وخمسمائة " هجرية . ويقول الأستاذ (نعوم شقير) في كتابه " تاريخ سينا والعرب " : " أنه مر بهذه القلعة وبالمسجدين ، ورأى للقلعة بابًا كبيرًا في الجهة الشمالية الغربية منها ، وفوق عتبة الدار حجر تاريخي عربي كبير مربع الشكل ، نقش عليه بحروف ظاهرة اسم صلاح الدين : " بسم اللّه الرحمن الرحيم ، وصلى اللّه على محمد . خلد اللّه ملك مولانا الملك الناصر صلاح الدين ، سلطان الإسلام ، والمسلمين ، يوسف بن العادل الناصر في جمادى الآخرة سنة ٥٨٣ هـ " .

ولم يكن اهتمام صلاح الدين بإقامة التحصينات العسكرية هو كل شيء، فقد اهتم بتعمير جزيرة الروضة والجيزة ، وبناء المقاييس وحفر الترع ، كما اهتم ببناء المستشفيات، ومن أهم هذه المستشفيات مستشفى يسمى (المارس تان) بمدينة القاهرة وهو بناء ضخم متسع ، وقد بناه صلاح الدين طلبًا للأجر ، وحبًّا في الثواب ، وعين لهذا المارستان مشرفًا من أهل المعرفة ، ووضع لديه خزائن العقاقير ، ومكنه من استعمال الأشربة وتوزيعها على اختلاف أنواعها ، ووضعت في حجرات هذا القصر الكبير أسرَّة مكسوَّة ومجهزة لاستقبال المرضى ، كما خصص جناحًا بالمستشفى للنساء ، وإلى جانب هذا توجد مقاصير عليها شبابيك الحديد اتخذت محابس للمجانين ، ولهم أيضًا من يتفقد في كل يوم أحوالهم ، وصلاح الدين يشرف على هذه الأحوال كلها بالبحث والسؤال والاهتمام .

وكانت مدينة الجيزة والروضة في أيام صلاح الدين من أهم البلاد ، ويقول ابن جبير في رحلته : " إنه كان يُنصب في الجيزة كل يوم أحد سوق من الأسواق العظيمة، ويقطع بينها وبين مصر جزيرة فيها مساكن حسنة ، وبيوت وأماكن للهو والنزهة ، كما يوجد بينها وبين مصر خليج في النيل وبه مسجد جامع يخطب فيه ، ويتصل بهذا الجامع المقياس الذي يعين زيادة النيل ونقصه ، كما كان يوجد به أحجار ورخام . . وغيرها من ضروب الجمال والفن .

رأى صلاح الدين أن مصر ينبوع يانع يستقي منه قُوَته البرية والبحرية ، فبنى السفن، وعمر الأسطول ، وجعل للأسطول ديوانًا مخصوصًا كان يسمى " ديوان الأسطول " سلمه لأخيه العادل ، وقد كانت الإسكندرية ودمياط أهم الموانئ البحرية في ديار مصر، وكانت الفسطاط ، وقوص ، من أعظم الموانئ النيلية ، وكان فيها إنشاء السفن الحربية التي ترابط بتلك الثغور، وتذهب للغزو في البحر لإعلاء كلمة الإسلام ، وجَعْل رايتها خفاقة في العالمين . نظر صلاح الدين إلى الإسكندرية فوجدها محط أنظار الإفرنج ، فخاف عليها منهم . فأمر بعمارة أسوارها وأبراجها ، ثم ابتنى بها مارستانًا بعد أن ابتنى واحدًا بمصر ، وفيه يقول صاحب صبح الأعشى : " ولما ملك السلطان الديار المصرية ، واستولى على القصر ، كان فى القصر قاعة بناها (العزيز ابن المعز) سنة ٣٨٤ هـ فجعلها السلطان بيمارستانا ، وهو البيمارستان العتيق الذي بداخل القصر " . ثم أنشأ السلطان بها دارًا للغرباء كما أنه تعهد بعض الجسور والترع ليصلح حال المزارعين .

٢ - الإصلاح التعليمي :

كان صلاح الدين يحب العلم ، ويشجع العلماء ، ولا يضنُّ بمال أو جهد في سبيل إنعاش الحركة الثقافية في البلاد ، فأنشأ كثيرًا من المدارس وقرب منه الكتاب والشعراء والعلماء وغيرهم من الراسخين في العلم ، وفنون الثقافة والعرفان . وكان نظام الكتاتيب موجودًا ، ففي عهد صلاح الدين كان الصبي إذا ما شب عن الطوق التحق بأحد هذه الكتاتيب ليتعلم القرآن، وليحفظ طرفًا من الحديث الشريف ، كما يتعلم الخط العربي ويحاول أن يتقنه ما استطاع إلى ذلك سبيلًا .

وكان الغلمان يتعلمون إلى جانب هذا بعض أصول الحساب ، ويحفظون بعض الشعر أو المأثور من الحكم والأمثال ، وكان الصبيان يتعلمون أداء الصلاة جماعة ، وطرق الابتهال إلى اللّه والخشوع في صلاتهم . .

وإذا شبَّ الغلام وترعرع وأراد أن يستزيد من العلم رحل إلى مواطن العلم في مصر أو الشام أو الموصل أو بغداد أو مكة . . ليتقن العلوم العقلية ، والعلوم النقلية ، كما يتعلم علم القراءات الذي كان من أهم المواد التي كانت تدرس في الجوامع والمدارس في تفصيل وإسهاب ، ويتعلم علم التفسير الذي ذهب فيه العلماء كل مذهب وقد قامت المساجد بدور كبير في إذكاء الحركة الثقافية في البلاد في عهد صلاح الدين ، فكانت تعج بالمصلين وطلاب العلم ، وكان منهم الماهر في علم القراءات أو التفسير ، كما كان منهم النابغ في النحو والصرف والعروض وأوزان الشعر . .

ومن أشهر هذه المساجد : جامع عمرو بن العاص ، والجامع الأزهر ، والجامع الأقمر، وجامع الحاكم بأمر اللّه ، وجامع سيدنا الحسين . . هذا في القاهرة ، أما في الإسكندرية فقد قام مسجد العطارين بدور كبير في نشر الثقافة الإسلامية ، وغيرها من العلوم التى انتشرت في ذلك الوقت ، وانتشرت في طول مصر وعرضها مساجد تقوم بهذه المهمة الجليلة : مهمة تثقيف الناس وتعليمهم .

كذلك قامت مساجد سورية بنفس الدور الذي قامت بها مساجد مصر، ومن هذه المساجد : جامع دمشق الذي فتن الرحالة (ابن جبير) بروعته عندما زار دمشق ، والذي جعل هذه المدينة قبلة العلم والعلماء من كل صوب ، كما قامت دار الحكمة بطرابلس الشام باستقبال عدد كبير من طلاب العلم حتى وقفت جنبًا إلى جنب مع دار الحكمة بمصر .

وقامت المدارس المختلفة بمصر والشام بتعليم المذاهب الفقهية على أوسع نطاق ، وذلك إلى جانب المدارس التي أنشئت في القدس عقب استردادها عام ٥٨٣ هـ . وبنى صلاح الدين في عام ٥٧٢ هـ أول مدرسة للحنفية ، عرفت بالمدرسة السيوفية ، وبلغ من عناية صلاح الدين بهذه المدرسة

أن وقف عليها اثنين وثلاثين دكانًا ، ولم يضنّ بمال على الأساتذة الذين يقومون بالتدريس فيها ، وبقيت هذه المدرسة قائمة يشع منها نور العرفان حتى وضعت الحرب الصليبية أوزارها .

وأنشأ صلاح الدين كذلك المدرسة الصالحية وجعلها للمذهب الشافعي ، وكان صلاح الدين نفسه على هذا المذهب ، ولذلك كان يهتم بشؤونها اهتمامًا بالغًا ، فأوصى أن تكون عظيمة البناء ، فسيحة الأرجاء ، وقد وقف صلاح الدين حمَّامًا بجوارها ، وفرنًا تجاهها ، وحوانيت شتى ، كما وقف عليها الجزيرة التي كان يطلق عليها جزيرة الفيل بالنيل ، خارج القاهرة ، كما يقول المقريزي في الخطط .

أما مدرسة القدس فقد بناها صلاح الدين عقب استرداد بيت المقدس عام ٥٨٣ هـ ، وكلف القاضي (بهاء الدين ابن شداد) بالتدريس فيها ، فكثرت وفود الطالبين للعلم إلى بيت المقدس ، وطار صيته في الآفاق .

وأمر صلاح الدين بتنظيم العمل في شتى المدارس التي أنشأها على اختلاف تخصصها في أمور العلم أو الدين ، فكان القائمون بالتدريس فيها ينقسمون إلى فريقين :

الفريق الأول : هو فريق المدرسين ، وهم الأساتذة المتبحرون في العلم . .

والفريق الثاني : هو فريق المعيدين ، وهؤلاء يقومون بإعادة ما يلقيه المدرسون على الطلاب حتى يرسخ في أذهانهم ، ولا يذهب عن أفهامهم .

وكان المعيد لا يبخل بوقته في سبيل إفهام العاجزين عن الفهم في سعة صدر ، ورحابة أفق . وكان يجلس في العادة بجوار المدرس حتى إذا انتهى الدرس وانفض الجميع من الحلقة ، كان المدرس أول الخارجين ، وترك الطلاب للمعيد ليقوم بعمله .

وليس من شك في أن هذا النظام لا يختلف كثيرًا عن النظام المتبع الآن في جامعاتنا ومعاهدنا العليا ، حيث يكمل عملُ المعيد عمل الأستاذ .

ويتضح من مناهج المدارس التي أسسها صلاح الدين أنه كان يقتفي آثار مولاه نور الدين في التعمير من جهة ، وكان يرمي إلى تعليم المذهب السني، وقطع دابر المعتقدات الفاطمية ، والمذاهب الباطنية ، وإذكاء شعلة الحماس ضد الفرنج الذين دنسوا البلاد ، وأكثروا فيها الفساد . .

وكانت سوق الكتب رائجة في ذلك العهد ، وكان بمصر سوق يقع في الجانب الشرقي من جامع عمرو بن العاص ، وأسواق أخرى . . تعدُّ الكتب التي تضمها من أنفس الكتب ، وأقيم الذخائر ، كما كان يوجد بدمشق سوق كبير للكتب يضم شتى أنواع الكتب من داني البلاد وقاصيها .

٣ - الإصلاح الاقتصادي :

كانت الدولة في عهد صلاح الدين تعيش في سعة من الرزق ، وبحبوحة من العيش ، ذلك لأن مواردها كثيرة ، ومنابع الأرزاق فيها متنوعة ، ويمكن أن نحصر هذه الموارد في الأمور التالية :

(أ) وضع يده على كنوز الفاطميين الكثيرة بعد أن أصبحت مصر تحت سلطانه .

(ب) موارد الجزية التي كانت تأتيه من غير المسلمين .

(ج) موارد الفدية التي كانت تصله من الأسرى .

(د) موارد الغنائم التي كان يحصل عليها أثناء الحروب .

(هـ) موارد الخراج الذي كان يؤخذ من أصحاب الأراضي التي فتحت صلحًا . إلى غير ذلك من هذه الموارد المشروعة ومنابع الثروة المسنونة .

ولم يكن صلاح الدين من السلاطين الذين ينفقون الأموال في غير وجهها ، ويضعونها في غير موضعها ، وإنما كان ينفقها في سبيل الله ، وإقامة الحصون ، وتشييد القلاع ، والإصلاح العمراني وفي كل ما يعود على الدولة بالنفع العام ، والفائدة العظيمة . .

ولأجل أن يجنب صلاح الدين البلاد ويلات المجاعات التي تسببها الحروب اعتنى بالزراعة ووسائل الري اعتناء بالغًا . لتنبت الأرض أطيب الثمرات ، وتنتج من كل زوج بهيج ، وقد تعاونت مصر والشام في تبادل المحاصيل الزراعية ، وتعزيز المصالح الاقتصادية ، وتموين الجيوش بالثروات اللازمة ، ووقف

الإقليمان جنبًا إلى جنب أمام اعتداءات الفرنج الغادرة ، وتزويد الجيش الإسلامي بكل ما يلزم من مواد غذائية وعتاد . . .

كما عني صلاح الدين بالتجارة عناية كبيرة ، فكانت مصر في عهده حلقة الاتصال بين الشرق والغرب ، وقد انتعشت مدن أوربية كثيرة بسبب هذه التجارة مثل مدينة (البندقية وبيزا) الإيطاليتين ، وقد سمح البنادقة فيما بعد بتأسيس سوق تجارية في الإسكندرية كان يطلق عليه " سوق الأيك " .

وأولى صلاح الدين الأسواق التجارية كل اعتنائه واهتمامه حتى يزدهر الاقتصاد ، ويزداد الإنتاج في دولته ، فكثر عددها في مصر والشام ، واهتم بإصلاحها وتوسيعها، ومر الرحالة " ابن جبير " ببعض هذه الأسواق في رحلته أيام صلاح الدين سنة ٥٧٨ هـ ، فسجل إعجابه بنظامها ، فقال في معرض الحديث عن مدينة حلب : " أما البلد فموضوعه ضخم جدًّا، جميل التركيب ، بديع الحسن ، واسع الأسواق كبيرها ، متصلة بالانتظام ، مستطيلة ، تخرج من سماط [1] صنعة إلى سماط صنعة أخرى ، إلى أن تفرغ من جميع الصناعات المدنية ، وكلها مسقف بالخشب ، فسكانها في ظلال وارفة ، فكل سوق منها تقيد الأبصار، وتستوقف المستوفز [2] تعجبًا . . وأكثر حوانيتها من الخشب البديع الصنعة " .

كما وصف (ناصر خسرو) في كتابه " سفر نامة " مدينة طرابلس الشام في عهد صلاح الدين فقال : " إنها بلد جميل ، حوله المزارع والبساتين ، وكثير من قصب السكر ، وأشجار النارنج والموز والليمون ، وبها منازل ذات أربع طبقات أو خمس أو ست ، وشوارعها وأسواقها جميلة نظيفة ، حتى لتظن أن كل سوق قصر مزين ، وفي وسط المدينة جامع عظيم ، نظيف جميل النقش حصين ، وفي ساحته قبة كبيرة تحتها حوض من الرخام في وسطه فوارة من النحاس الأصفر ، وفي السوق مشرعة [3] ذات خمسة صنابير يخرج منها ماء كثير ، يأخذ منه الناس حاجتهم . . ويصنعون بها الورق الجميل ،

---

[1] السماط : الجانب .
[2] المستوفز : المستعجل .
[3] المشرعة : مورد الشاربة للماء .

فلما فتحت تلك المدينة نهبت ، وأعمل السيف في رقاب سكانها ، وصارت مكتبتها ومدرستها ومصنع ورقها رمادًا . . " .

من هذه الفقرات القليلة يتضح لنا مدى اهتمام صلاح الدين بعمران المدن ، وبالأسواق التجارية فيها ، كما نستطيع أن نستخلص من كلام (ناصر خسرو) وجود مصنع للورق في مدينة طرابلس الشام ، وهذا من مفاخر صلاح الدين بالإضافة إلى مفاخره العظيمة ، وأمجاده الخالدة .

وساعدت الحروب الصليبية على نقل صناعة الورق إلى أوربا ، فقد أنشئ أول مصنع للورق في جنوب بلجيكا عام ١١٨٩ م ، حتى أن إنكلترا لم تعرف صناعة الورق إلا في القرن السادس عشر الميلادي .

ومن الصناعات التي اهتم بها صلاح الدين : صناعة السلاح والمنسوجات والأقمشة ، والملابس الحريرية المزركشة ، وسروج الخيل المطهمة، وصناعة الزجاج ، كما انتشرت في عهده صناعة الخزف والسفن والأساطيل . . إلى غي ر ذلك مما يزهر الاقتصاد ، ويضاعف الإنتاج ، ويمكن للدولة أسباب القوة . .

٤ - الإصلاح الاجتماعي :

كانت الحياة الاجتماعية في عهد صلاح الدين تتسم بطابع الجدِّية والجهاد ومناهضة الفرنج ، ومكافحة العدو . . وكانت بعيدة كل البعد عن مظاهر الأبهة الفارغة الكاذبة ، والعظمة الكاذبة ، والبذخ المفرط .

وكان رحمه الله يعطي لجنوده ورعيته القدوة الحسنة في اللباس العادي ، والطعام الخشن ، والمجالسة المتواضعة ، يقول العماد الأصفهاني في وصف ملبسه ومخالطته : "كان لا يلبس إلا ما يحل لبسه كالكتان والقطن والصوف ، وكان من جالسه لا يعلم أنه جالس سلطاناً لتواضعه " .

وكان صلاح الدين رياضيًّا يحب الفروسية ولعب الكرة ، ويشجع عليها ، وكان يركب لمشاهدة مباريات (الكرة والصولجان) بعد صلاة الظهر ومعه رجاله ، حتى إذا ما وصل إلى الميدان نزل ليشاهد

اللعب ، ويستمر المتبارون في لعبهم حتى أذان العصر، وكان يشترك في هذه المباريات مع خاصته ، وينطلق للعب مع بعض رفاقه . وكان الصيد من أحب الهوايات عند الناس ، فكانوا ينطلقون زرافات ووحدانًا لصيد الطيور والأسماك والأوز والأرانب ، وكانوا يستخدمون الكلاب والصقور في صيدهم.

وهذه الظاهرة إن دلت على شيء فإنما تدل على التأهب الكامل ، والاستعداد التام لخوض المعارك في شجاعة فائقة ، وبسالة منقطعة النظير .

ومن الإصلاحات الكبيرة التي حققها صلاح الدين في المجتمع المسلم إبطاله مظاهر الخلاعة والمجون التي كانت شائعة في عهد الفاطميين ولا سيما في المواسم والأعياد كعيد النيروز ، وإذا أردنا أن نعرف مبلغ هذه الخلاعة التي كانت متفشية في المجتمع المصري قبل عهد صلاح الدين فلنسمع إلى ما يقوله المقريزي في خططه : "كانت المنكرات ظاهرة في عيد النيروز ، والفواحش صريحة فى يومه ، ويركب فيه أمير موسوم بأمير النيروز ومعه جمع كثير ، ويتسلط على الناس في طلب رسم رَتَّبه على بيوت الأكابر ، ويقنع بالميسور من الهبات ، ويتجمع المؤنثون والفاسقات تحت قصر اللؤلؤ بحيث يشاهدهم الخليفة وبأيديهم الملاهي ، وترتفع الأصوات ، وتشرب الخمور في الطرقات ، ويتراش الناس بالماء ، وبالماء والخمر، وبالماء ممزوجًا بالقاذورات ، فإن غلط مستور ، وخرج من داره لقيه من يرشه ويفسد ثيابه ويستخف بحرمته ، فإمَّا فدى نفسه، وإما فضح . . " .

أبطل صلاح الدين هذه المظاهر الفاسدة ، والمنكرات السافرة . . ومكن الناس من الحياة البريئة النظيفة ، وأعاد لهم أخلاق الإسلام ، وآدابه السامية .

ومن المظاهر الفاسدة التي أبطلها : بدع المناسبات والمواسم ، مثال ذلك : بدع يوم عاشوراء الذي كان يوم حزن وأسى عند الفاطميين ، ففي هذا اليوم كان يكثر النحيب، ويرتفع البكاء ، وتتعطل الأعمال ، وتتوقف الأسواق ، وترى الناس في هرج ومرج كأنما فقد كل واحد منهم أعز الناس لديه ، وأحبهم إليه . . فاستطاع أن يقضي على هذه العادات الذميمة ، والبدع السيئة . وأن يقلب هذا اليوم إلى يوم ابتهاج وفرح وتوسعة على العيال ، فأصبح الناس يصنعون فيه الحلوى ، ويلبسون الجديد ، ويأكلون

ما لَذَّ من الطعام والشراب ، ولا شك أن هذا الذي فعله صلاح الدين يتفق مع مبادئ الشريعة ، وآداب الإسلام ، بل التوسعة على العيال في يوم عاشوراء من هدي [١] النبي صلى الله عليه وسلم .

أما إنعامه على الرعية ، وتوزيعه العطاء على الناس فحدّث عنه ولا حرج ، فكان يعطي عطاء من لا يخشى الفاقة ؛ لأن نظرته إلى المال كمن ينظر إلى التراب ، وسبق أن ذكرنا أنه حين مات لم يخلف في خزانته من الذهب والفضة إلا سبعة وأربعين درهمًا ناصرية ، وجُرمًا واحدًا ذهبًا ؛ ولم يخلف ملكًا ولا دارًا ولا عقارًا ولا بستانًا ، ولا قرية ولا مزرعة، ولا شيئًا من أنواع الأملاك .

وإذا كان لم يأخذ من هذه الأموال شيئًا لنفسه ، ولم يخصّ بها أحدًا من أهله وأقربائه، فهي إذا لمنْ ؟ لا شك أنها للمشاريع الإصلاحي ة ، وإعداد الوسائل الحربية ، وللمستحقين من أبناء الرعية . . حتى يتحقق للمجتمع تكافله الكامل ، وللدولة قوتها المنيعة ، وللأفراد معيشتهم المثلى . . وهذا ما مكن له هذا السلطان العادل ، والقائد البطل .

ومن الأعمال العظيمة التي خلدت لصلاح الدين ذكره ، إبطاله الكثير من الضرائب التي كانت تثقل كاهل المجتمع ، وتقضَّ مضاجع الناس كالضرائب التي كان يفرضها أمير مكة على الحجاج يقول : (وكان صاحب مكة قد أمر بأن يؤدي الحجاج مكوس مكة مقدمًا في جدة ، فوقع على الحجاج الظلم فيها ، فأبطل صلاح الدين كل هذا النظام ، وعوض صاحب مكة عنها جملة ، فحمل إليه في كل سنة ثمانية آلاف إردب [٢] قمحًا ، واشترط أن تفرق في أهل الحرمين ، فرفع صلاح الدين بذلك متفرقا تها عن الناس ، وأفاد بجملتها التي أداها من بيت المال أهل الحرمين " .

ومما يدل على حسن طويته ، وحرصه على سلامة المجتمع. ووحدة الأمة ، والتحذير من الظلم : وصيته لابنه الملك الظاهر الذي أسند له ولاية حلب ، يقول في هذه الوصية كما رواها عنه قاضيه ابن شداد : " أوصيك بتقوى الله فإنها رأس كل خير ، وآمرك بما أمر الله به فإنه سبب نجاتك ، وأحذرك

---

[١] روي الطبراني في الأوسط والبيهقي عن أبي سعيد : " من وسع على عياله في يوم عاشوراء وسع اللّه عليه في سنته كلها " .
[٢] الأردب : مكيال ضخم وهو ٢٤ صاعًا . ويقدر الصاع بـ ٥و٣ ل غ تقريبًا .

من الدماء والدخول فيها والتقليد بها فإن الدم لا ينام ، وأوصيك بحفظ قلوب الرعية ، والنظر في أحوالهم فأنت أميني وأمين اللّه عليهم ، وأوصيك بحفظ الأمراء وأرباب الدولة والأكابر ، فما بلغتُ ما بلغتُ إلا بمداراة الناس ، ولاتحقد على أحد فإن الموت لا يُبْقي على أحد ، واحذر ما بينك وبين الناس فإنه لا يغفر إلا برضاهم ، أما ما بينك وبين اللّه فإنه تعالى يغفره بتوبتك إليه فإنه كريم " .

هذا أهم ما قام به صلاح الدين من إصلاح اجتماعي ، وتقويم أخلاقي ، ليزهو المجتمع الإسلامي في عهده بأكرم الخصال ، وأحسن العادات ، وأفضل الآداب .

٥ – الإصلاح العقائدي :

سبق أن ذكرنا في صفة صلاح الدين الاعتقادية والتعبدية أن صلاح الدين اتسم بالإيمان والعبادة والتقوى والخشية من اللّه والثقة به ، والالتجاء إليه . . (وأنه كان – كما يقول القاضي بهاء الدين – حسن العقيدة ، كثير الذكر للّه تعالى ، وقد أخذ عقيدته عن الدليل بواسطة البحث من مشايخ أهل العلم ، وأكابر الفقهاء) . ومن كان على هذه التربية الإيمانية ، والسلوك الاعتقادي القويم فلا بد أن يقوم بواجبه الأكمل في إصلاح العقيدة ، وتقويم الاعوجاج ، وتبديد ظلمات الضلال ، والذود عن حياض الإسلام .

ومن هذا المفهوم الواعي ، والاعتقاد الراسخ انطلق صلاح الدين ليحطم أغلال الإلحاد ، وينسف قواعد الزندقة في كل بلد يذكر فيه اسم اللّه ، وترفرف على أرجائه راية لا إله إلا اللّه ، فكان إذا سمع عن رجل يدعوا إلى مبادئ لاتتفق مع عقيدة أهل السنة ولا تلتقي مع قواعد الشريعة الإسلامية يأمر بقتله فورًا بعد أن يستشير جماعة الفقهاء والعلماء ، وفي هذا يقول القاضي بهاء الدين : " وكان رحمه الله كثير التعظيم لشعائر الدين ، وكان مبغضاً للفلاسفة والمعطلة ومن يعاند الشريعة ، وإذا سمع عن معاند ملحد في مملكته كان يأمر بقتله " . ولما أصبح صلاح الدين وزيرًا للعاضد الفاطمي في مصر إبان شبابه آلمه ما وجد عليه حال البلاد من المعتقدات الباطنية والمذاهب المنحرفة ، وهي معتقدات باطلة ، ومذاهب منحرفة ، لا تمت إلى عقيدة أهل السنة والجماعة بصلة أونسب ، ويتلخص مذهبهم الفاسد

بما يلي : (إن الإمامة ليست من المصالح العامة التى تعود إلي اختيار الأمة ، بل هي ركن من أركان الدين لا يجوز لنبيٍّ إغفاله ولا تفويضه إلى العامة ، بل يجب على الرسول قبل موته أن يعين الإمام للمسلمين ، وأن يكون هذا الإمام معصومًا من الكبائر والصغائر ، وأن عليًّا عينه النبي ﷺ للخلافة من بعده وأن أبا بكر وعمر قد اغتصبا الخلافة منه ، **ومنهم الغلاة** الذين قالوا بألوهية هؤلاء الأئمة إما على أنهم بشر اتصفوا بصفات الألوهية ، أو أن الإله حلَّ في ذواتهم البشرية ، ومن هؤلاء من يقف عند واحد من الأئمة لا يتجاوزه إلى غيره ، ويقول إنه حي لم يمت إلا أنه غائب عن الأعين وأنه يخرج آخر الزمان فيملأ الأرض عدلًا كما ملئت جورًا) وفي العصر الفاطمي قامت طائفة من غلاة الشيعة ودعاة الإسماعيلية بتأليه الحاكم بأمر الله الفاطمي وذلك سنة ٤٠٨ هـ حين جهر "حمزة بن علي" بألوهية الحاكم ، وصنف كتابًا ذكر فيه أن روح الله حلت في آدم ، ثم انتقلت إلى علي بن أبي طالب ، وأن روح علي انتقلت إلى العزيز ثم إلى ابنه الحاكم الذي أصبح في نظرهم إلهًا عن طريق الحلول ، ويعتبر (حمزة بن علي) المؤسس لعقيدة الحلول للمذاهب الباطنية .

فكان من البديهي أن يَهُبَّ صلاح الدين بعد أن أصبح وزيرًا على مصر ، وبعد أن أصبحت البلاد المصرية تحت حكمه وسلطته . . أن يهب لمحاربة هذا المذهب الباطل ، وأن يقضي عليه ، وأن يجند كل قواه لطمس معالمه ، ومسح آثاره ، وأن يُحلَّ محله عقيدة أهل السنة والجماعة باعتبار أنها عقيدة الإسلام الحق ، والقرآن المنزل .

وقد تم لصلاح الدين ما أراد إذ لم يمض شهور قليلة على وزارته حتى فتح المدارس في طول البلاد وعرضها ، ومن أشهرها المدرسة الناصرية ، والمدرسة الكاملية . . وأمر جميع طبقات الشعب أن ينخرطوا في سلك هذه المدارس ، ليدرسوا الدين الحق ، والإسلام الصحيح ، ويتلقنوا عقيدة أهل السنة والجماعة خالصة من كل دس ، منزهة من كل انحراف .

ومن العوامل التي ساعدت على تمكين العقيدة الإسلامية الخالصة في نفوس المصريين محبتهم له وثقتهم به وذلك عقب انتصاره على الفرنج بعد غزوهم (دمياط) و (غزة)، وبعد استيلائه على مدينة

(العقبة) ، وهي مفتاح البحر الأحمر لطريق الحجاج المصريين وغير المصريين إلى مكة المكرمة ، فكان هذا النصر العظيم ، والفتح المبين ، وتأمين طريق الحجاج المسلمين من أكبر العوامل في تبادل الثقة والمحبة والإخلاص بينه وبين المصريين ، وهذاما دفع المصريين لأن يتركوا مذهبهم الشيعي ، وينضموا إلى إخوانهم السنيين ، بل إلى راية صلاح الدين حتى يقاتلوا عدو اللّه وعدوهم لإعلاء كلمة اللّه .

وإذا كانت أرض الكنانة مصر تعتنق اليوم عقيدة أهل السنة والجماعة فإن الفضل الأكبر لهذا البطل الخالد ، والسلطان المصلح صلاح الدين رحمه الله .

خاتمة

أما بعد ! . . فهذه دراسة موجزة عن سيرة هذا البطل العظيم ، والرجل الخالد . وهي دراسة تجمع في فصولها وأبحاثها بين السماحة والحزم ، والشجاعة والحذر ، والعبادة والانفتاح ، والقوة والمروءة ، و التضحية والجهاد . .

وقد عرفنا كيف استطاع أن يجمع القوى المفتتة تحت قيادته الرشيدة ، وأن يَلُمَّ أطراف البلاد في دولة واحدة . . هذه الدولة القوية استطاعت أن تقف في وجه الفرنج، بل أمام الغرب كله كالطود الشامخ ، والجبل الراسخ، لا تزعزعه الأهوال ، ولا تفت في عضده العواصف الهوجاء . . وقد تمكن هذا البطل بإيمانه المتين ، وشجاعته الفائقة ، وجهاده المستمر أن يحصر الفرنج على الساحل في رقعة ضيقة بين عكا ويافا ، ولم تمض سنوات بعد وفاته حتى استطاعت القوى الإسلامية أن تُنْزِلَ بالفرنج أكبر الخسائر ، وتمكنت من طردهم نهائيًّا فيما بعد .

وسبق أن ذكرنا أن مملكة صلاح الدين ، وسلطانه الكبير ظل يتسع ويمتد حتى شمل العراق ، والكردستان والشام واليمن ومصر وبرقة .

وعلى أثر قيام هذه الوحدة الإسلامية الشاملة ، استبشر العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه ، وتفاءل خيرًا في الوصول إلى النصر ، ولم تمض فترة قصيرة حتى استطاعت الأمة الإسلامية بقيادة البطل صلاح الدين أن تنقضَّ على الدولة الصليبية في القدس ، وأن تجعلها أثرًا بعد عين في معركة حاسمة لها في الأجيال ذكر ، وفي التاريخ دوي .

واليوم : التاريخ يعيد نفسه ، فالب لاد الإسلامية منقسمة إلى أجزاء ، ومتقطعة إلى أوصال ، ومنفصلة إلى دويلات . . خرجت – بعد القضاء على الخلافة العثمانية وبتآمر الصليبية واليهودية والاستعم ار – وهي أسوأ حالًا ، وأكثر شتاتًا ، وأكبر انقسامًا وتجزئة، وأضعف قوة وسلطانًا . .

واليهود قد رسخوا أقدامهم في الأرض المقدسة ، واغتصبوا المسجد الأقصى أولى القبلتين ، وثالث الحرمين ، ويزدادون يومًا بعد يوم قوة وتمكينًا ورسوخًا .

إن حال البلاد الإسلامية مع اليهود ، أشبه ما تكون بحال المسلمين مع الصليبيين بالأمس . . أليست الفُرقة هي الفُرقة ؟ أليس الاعتداء هو الاعتداء ؟ أليس الحقد على الإسلام هو الحقد على الإسلام ؟ فبماذ انتصروا إذن ؟ .

* انتصروا لأن المسلمين بالأمس خاضوا معارك فلسطين باسم الإسلام. . أما اليوم فإن أكثر حكوماتهم يخوضون المعارك باسم شعارات مزيفة ما أنزل اللّه بها من سلطان .

* انتصروا لأن المسلمين بالأمس حكموا بالإسلام دينًا ودولة ، أما اليوم فإن أكثر الحكومات تحكم بغير ما أنزل اللّه ، وتستمد الأنظمة والقوانين من دساتير الشرق أو الغرب .

* انتصروا لأن المسلمينَ بالأمس شادوا دولة ، وحققوا وحدة . . أما اليوم فإنهم انقسموا على أنفسهم ، فمنهم من انحاز لليمين ومنهم من انحاز لليسار .

* انتصروا لأن المسلمين بالأمس وثقوا بوعد الله ، واعتمدوا في تحقيق النصر على الله، أما اليوم فإنهم اعتمدوا على قوى البغي والعدوان والإلحاد من شيوعية حمراء ورأسمالية طاغية .

* فما أجدر القادة ورؤساء الحكومات الإسلامية والعربية اليوم أن يتأسوا بالقائد المظفر صلاح الدين ، وأن ينهجوا نهجه بالإيمان الراسخ ، والعزم الصادق ، والشجاعة الفائقة ، والتضحية الغالية ، والتطبيق الصحيح ، والتقوى المؤمنة . . وما أحوجهم إلى دراسة التاريخ الإسلامي ، والسيرة النبوية ، ليعرفوا كيف انتصر جدودهم البواسل الأمجاد في بدر والقادسية واليرموك وحطين وعين جالوت ؟ . .

وما أحوجهم أن يعيدوا النظر في مبادئ الإسلام ، وتشريع القرآن ليعلموا أن شريعة اللّه هي التي تجمع في طياتها عناصر الحق والخير والجمال . . وهي التي تحمل في مبادئها مقومات الشمول والتجدد والاستمرار . . وهي التي تحمل لأمة الإسلام والعرب أسباب القوة والنصر والحضارة . . وهي التي

ترسخ في أرض البشر قواعد العدالة والمساواة والسلام . . . وصدق الله العظيم القائل في محكم كتابه :
﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ (المائدة : ٥٠) .

رحم اللّه صلاح الدين لقد أدى الرسالة وبلّغ الأمانة وحقق العزة لأمة الإسلام ، وأتم على البلاد الإسلامية نعمة الوحدة والقوة والمنعة . . وحرر الأرض المقدسة من براثن الصليبية الحاقدة ، والاستعمار البغيض . .

فلا عجب إذا احتل صلاح الدين تلك المكانة العالية في تاريخ الشرق والغرب ، وسيظل اسم صلاح الدين حيًّا في قلوب الملايين من البشر ، وسيظل التاريخ يحدث الأجيال عن سيرته العطرة ، وأخلاقه النبيلة ، وشجاعته النادرة ، ومروءته المثالية ، وجهاده الدؤوب .

ولا يسعنا أن نقول في الختام إلا ما قاله جليسه وصديقه ابن شداد : "ا للهم إنك تعلم أنه بذل جهده في نصرة دينك ، وجاهد رجاء رحمتك ، فارحمه " .

كما نسأله سبحانه أن يهيئ لهذه الأمة حاكمًا مثل صلاح الدين ليحرر أرض فلسطين ، ويخلص المسجد الأقصى من براثن اليهود المجرمين وأعوانهم من المتآمرين والظالمين وليس ذلك على اللّه بعزيز ، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر اللّه ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم .

لا هم قد أصبحت أهواؤنا شيعًا   فامنُنْ علينا براعٍ أنت ترضاه
راعٍ يعيد إلى الإسلام سيرتَه   رعى بنيه وعَيْنُ اللّه ترعاه

وآخر دعوانا أن الحمد للّه رب العالمين

تقريظ من الشاعر الكبير الأستاذ عبد الجبار الرحبي   حفظه الله

حضرة الأستاذ الفاضل العالم الشهير الأستاذ عبد اللّه علوان الأكرم .

بعد السلام عليكم ورحمة اللّه وبركاته والسؤال عن صحتكم وراحتكم، وبعد ، لقد أنِسْتُ وتشرفت بزيارتكم في منزلكم العامر بصحبة صديقنا وأخينا العزيز الأديب الكبير العبقري الأستاذ السيد عبد اللّه الطنطاوي حفظه اللّه وجعله ذخرًا للعرب والإسلام والدين الحنيف وعونًا وسندًا كريمًا لإخوانه وأصدقائه ومحبيه . . وقد تكرمت أيها الأخ الكريم فأهديتني كتابك الفذ عن الملك المسلم المنافح المناضل في سبيل اللّه وإعلاء كلمة الدين وتطهير البلاد الإسلامي ة من رجس الأوثان ، والأعداء والمستعمرين، الملك العادل صلاح الدين الأيوبي فقرأتُ هذا الكتّاب القيم فاستفدتُ عِبَرًا وتاريخًا حافلًا بالبطولات والجهاد الحق والإيمان والصلاح والتقوى فألهمني بالأبيات التالية التي أقدمها لحضرتكم لتنوب عن شكري الخالص على هديتكم القيمة راجيًا أن تنال عندكم حسن القبول والرضا وهي كما يلي :

صلاح الدين

جزاك اللّه " عبد اللّه " خيرًا   بما أوضحت بالقلم الفَريد ! !

كتابك عن " صلاح الدين " فتح   أتاك بنصره المجد التليد

به نافحت عن بطل iiعظيم   وعن تاريخ إسلام iiمجيد

وعن أحوال قوّاد i iعِظام   مضوْا في عهد ماضينا iiالحميد

أعزُّوْا أمة القرآن iiحقًّا بإيمان وإخلاص أكيد

وأعلَوْا في الورى دينًا iiقويمًا أتى للناس بالحكم iiالرشيد

وشادوا دولةً بالحب iiتسمو وبالأخلاق والعدل iiالسَّديد

ونالوا بالجهاد مقام iiعزٍّ على التاريخ يبقى في جديد

ملوك حرَّروا الأوطان iiحربًا من الأعداء في سَحْق iiالجنود

فدمياطُ وغزَّة شاهدات وحطين على خفق iiالبنود

أذاقوا في الوغى موتًا iiزؤامًا ملوكَ الغرب في دكِّ iiالحشود

" عماد الدين " يخْضِدُ كلَّ iiعاد على الجَوْلان بالفتك iiالشديد

ونور الدين في عكا iiويافا له صول كزمْجَرةِ iiالرعود

ويرفع في روابيها " صلاح ii" بنودَ النصر تخفق iiبالنَّشيد

" صلاح الدين " تعرفه iiالبرايا   بعدل كان مدعاة الخلود

إمام عادل بَرٌّ iiرحيم   تتيه بذكره كل iiالعهود

" أعبد الله " خذها من iصديق   تهانٍ مثل أعباق iiالورود

لقدت زفت إليك بحسن نسج   تميس به كَرَّبَات القدود !!

لقد جاءت إليك بصدق iiودٍّ   وإخلاص ، وتقدير iiمزيد

وأرجو أن تنال بخير iصنع   مقام العز من رب iiودود

وختامًا أرجو أن تتفضلوا بقبول تحياتي المخلصة

ودوام مراسلتي ولكم مني مزيد الاحترام والشكر

في ٦ آذار سنة ١٩٧٥

أخوكم المخلص

عبد الجبار الرحبي

المراجع

اسم الكتاب	اسم المؤلف
أيام صلاح الدين	محمد العمروسي المطوي
الإيمان طريقنا إلى النصر	محمد نمر الخطيب
تاريخ الإسلام السياسي	حسن إبراهيم حسن
التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام	محمد الغزالي
الحروب الصليبية في المشرق والمغرب	عبد العزيز سيد الأهل
حياة صلاح الدين	أحمد بيلي
درس النكبة الثانية	يوسف القرضاوي
الدعوة إلى الإسلام	" ت - و - أرنولد "
رحلة ابن جبير	ابن جبير
السلوك لمعرفة دول الملوك	المقريزي
صلاح الدين الأيوبي	جمال الدين الرمادي
صلاح الدين بين شعراء عصره وكتابه	أحمد أحمد بدوي
الكامل في التاريخ	ابن الأثير
كتاب الروضتين في أخبار الدولتين	أبو شامة
معجم البلدان	ياقوت الحموي
مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام	محمد عبد الله عنان
الناصر صلاح الدين	سعيد عبد الفتاح عاشور
النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة	أبو المحاسن
النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية	ابن شداد
وفيات الأعيان	ابن خلكان

* * *

شكر وتقدير ودعاء بالفرج :

للصهر الكريم المهندس الزراعي الأستاذ لطفي نمر مارديني على ما بذله من جهد في تصحيح ملازم هذا الكتاب جزاه الله كل خير .